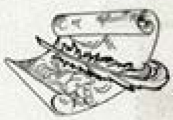
الأعلام من الأدباء والشعراء



أبو العلاء المعري

رهين المحبسين

إعداد

جعفر خزبياني

ماجستير في الدراسات العربية والإسلامية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء

أبو العلاء المعري

رهين المحبسين

إعداد
جعفر زنيباني
مختص في الدراسات العربية والإسلامية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أبو العلاء المعرّي شخصيّة عجيبة جذّابة، اختلف الناس حولها منذ أن ماتت وحتى خلال حياتها، وانقسموا شيعاً ومذاهبَ في نقدها.

أبو العلاء المعرّي شاعر مفكّر، سار على خط فكريّ وفلسفيّ وحياتيّ؛ لم يتبدّل أو يتغيرّ حتى في التطبيق العملي وفي لون المادة الأدبية التي قدّمها لنا، سواء أكانت تلك المادة ممثّلة في نثره كما في الفصول والغايات، وفي رسالة الغفران، أو كما في شعره سقط الزند، وخاصة فى سفره الخالد «اللزوميات» أو لزوم ما لا يلزم.

لقد أعطانا المعرّي من كتبه وأفكاره الكثير. ومع ذلك فإننا نظلم الرجل لو قسناه فقط بكتبه، فحجمه أكبر من ذلك. . . لأن حياته هي نفسها أحسن وأعظم كتاب يصدر عن أبي العلاء المعرّي.

فقد آمن بفلسفة خاصة وعبّر عنها في نثره وشعره، والتزم

بها حياةً، فتحولت الكلمة إلى فعل، وتحوّل الرأي عنده إلى تطبيق واقعي ارتآه وسار عليه.

وقد جاءت آراء الشاعر شاملة لجوانب الحياة، فلم تقتصر على جانب واحد معيّن فشملت الكون ومظاهره وميادينه، استشعر العبث واللاجدوى، وتنفس الاغتراب والعقم والغثيان، أيقن بلا غائية الكون، وبجبرية الإنسان، وانتهى إلى تكريس الموت وديمومة العدم، وتعرض للقضاء والقدر، وللخير والشرّ، وللبعث والحساب والجزاء، وللزواج والتناسل، وللنبوات والرسالات السماوية.

أراد أبو العلاء أن يصلح ما استطاع إليه سبيلاً، فانطلق بالأدب من النطاق الاقليمي والقومي إلى رحاب الأدب العالمي، ونقل الشعر العربي نقلة يجب الوقوف عندها، حيث جاء شعره تعبيراً عن المجتمع والطبيعة ونواميسها، متجاوزاً حدود الزمان والمكان، فيا له من قائل:

ملّ المقام، فكم أعاشر أمة
أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعدوا مصالحها وهم اجراؤها[1]

(١) اللزوميات: ١/٥٤ دار صادر ـ بيروت ١٩٦٠ م.

ويقول:

ولــو أنّــي حُبــيــتُ الــخُــلدَ فــردا،
لــمــا أحببتُ بــالــخُــلْدِ انــفــرادا
فــلا هــطلت عــلــيّ، ولا بــأرضــي،
ســحــائــبُ لــيس تــنــتــظمُ البــلادا[1]

رأى أبو العلاء المعرّي في ظلامه الدامس النور المتوقّد والكون الفسيح الذي جعله حديث روحه، فتذوق التقشف ليستشعر باللذة والأمان وحكم الإرادة، وجاءت دورة الدم في جسده دورة للفكر، وراح يفتش عن نبضة الحياة في جرحه، حتى جاء انتاجه خميرة شخصيته.

عاش أبو العلاء بإرادة قوية، وعرف حقيقة وجودة ليسمو بوجوده إلى العلاء.

آمن بأنّ الجسد عبارة عن قشرة زائلة، يتجمّد ويتحجّر، فنظر إلى الكون من خلال الروح والسمع في نمط حياتيّ غنيّ عن التعريف؛ يقول:

وقــد ســار ذكــري في البــلادِ، فمن لهم
بــاخفــاء شمسٍ، ضــوؤهــا متكــامــل؟

(١) شروح سقط الزند: ٥٦٤/٢ دار الكتب - القاهرة - ١٩٤٨ م.
كذلك: سقط الزند ص ١٩٨ - دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٠ م - (تنتظم: تعم).

وإنـــي، وإن كـنــتُ الأخـيــر زمــانُـهُ
لآتٍ بـمــا لـم تـسـتـطـعـه الأوائــل(١)

وقد أتى أبو العلاء المعري بما لم تستطع الأوائل أن تأتي به من إحصاء اللغة وتدوينها في كلام نافع ممتع، ومن اتقان لعلومها، وبراعة مميزّة في النحو والصرف والعروض حافظاً لاكثر ما أنشأ الشعراء وكتب الكتّاب في العصور الأدبية التي سبقته.

ولم يكتفِ بذلك بل أتقن علوم الدين على اختلافها. فروى الحديث وفهم القرآن الكريم أحسن فهم ودرس الفقه والكلام كأحسن ما يكون الدرس.

وبهذا كان أبو العلاء المعرّي فذّاً بين أدباء العرب وشعرائهم وكتّابهم، لم يجتمع لأحد من الذين سبقوه أو جاءوا بعده مثل ما اجتمع له من علم وسعة معرفة وعمق تجربة.

ولما رست سفينته ولطمها الموت، كانت وصيته على ضريحه:

---

(١) شروح سقط الزند: ٥٢٣/٢ ـ دار الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ م.
سقط الزند: ص ١٩٣ ـ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٠ م.

هــذا جنــاه أبــي عــليّ
وما جنيـت عـلى أحـد(١)

ولعل موت أبي العلاء لم يكن خيراً من ظروف حياته التي عاناها وذاق مرارة علقمها، فقد وجّهت نحوه سهام حادّة، فاتّهم بالزندقة وبالتشاؤم، وانه انتاش لحم البشر بـأنياب حداد، حتى زهده كان عند زعم البعض سلبية وضعفاً في الحيوية، وانسحاب المهزوم في مواجهة المجتمع.

ولكن رغم هذا وذاك يبقى لعطاء الـرجل دورة زمن، وموقف شاعر، واحساس إنسان، ينتاب المرء على عتبات الحياة القاسية والأمل الضائع والأماني المستعصية.

وقد تعدّدت الآراء وتنوعت حول شخصية أبي العلاء وتراثه حتى لنراها تتقارب أحياناً ولا تكاد تتّفق، وتتباعد أحياناً أخرى وتتّسع وفق الأهواء.

فأستاذنا الدكتور طه حسين ـ وهو رائد الدراسات العلائية المعاصرة لا تجحد ريادته ـ فقد ذهب إلى أنّ العمى هو محور الشخصية العلائية والمفسّر الأساسي لمعطياتها في

---

(١) السبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ص ١٥٦ (ضمن تعريف القدماء) كذلك: ابن الوردي في تتمة المختصر ص ٢٠٨ والسيوطي في بغية الوعاء ص ٣٣٤ (ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري).

الحياة والابداع(١). كما ذهب غير باحث إلى أنّ أبا العلاء كان فيلسوفاً عكس الذي جاء به العالمان: الاستاذ أمين الخولي والدكتورة بنت الشاطىء، بأنّ أبا العلاء شاعر فنان لا فيلسوف وصاحب منطق.

وهناك التفاتة إلى صنيع أبي العلاء في الدرعيات من قبل الاستاذ العقّاد والصنعة العلائية عند الدكتور طه حسين والدكتور شوقي ضيف. فالتمثل الصادق للروح العلائي، لا يستعصي على صاحبه أن ينأى بالشاعر عن الأبنية المحكمة المحددة للفلسفة، ليضعه في القلب من رحابة الفن وتعدد الرؤى فيه، هذا فضلاً عن تألق الفكر في التجربة العلائية واتسامها بالاصالة والتأثير المباشر في الشعر العربي عامة.

ونحن وإذ لا يساورنا شكّ، في الصلة الوثقى لعطاء الرجل الفكري والفنّي بمكوناته الذاتية من ناحية، وبسائر عناصر مجتمعه السوري والإسلامي من ناحية أخرى، فاننا نتناول تجربة الحياة ونشأة الشاعر وأثر البيئة والثقافة في عطائه: علّنا نغني بحثنا بقدر من الجهد، ونفي أبا العلاء بعض حقه في معايشتنا لتراثه وسيرة حياته.

---

(١) راجع: ذكرى أبي العلاء ـ مع أبي العلاء في سجنه (للدكتور طه حسين).

نشأة المعرّي:

ولد أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان، أبو العلاء التنوخيّ الشاعر، من أهل معرّة النعمان[١] سنة ٣٦٣ هـ. واعتلّ علّة الجدري التي ذهب فيها بصره سنة ٣٦٧ هـ[٢]. ومعّرة النعمان هي مدينة كبيرة قديمة مشهورة، من أعمال حمص، بين حلب وحماة، ماؤهم من الآبار، وعندهم الزيتون الكثير والتين[٣].

ويذهب ابن بطوطة في قوله، إلى أنّ تسمية المعرّة جاءت بالنسبة للنعمان الأنصاري، صاحب رسول الله ﷺ، وكانت قبل ذلك تسمّى «ذات القصور» وقيل إنّ النعمان جبل مطلّ عليها سمّيت به[٤].

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ مدينة السلام ص ٥ ـ ضمن تعريف القدماء ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ ١٩٦٥ م.
الخطيب البغدادي هو: (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي).

(٢) ياقوت الحموي: إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب، المعروف بمعجم الأدباء، ص ٦٧ ضمن تعريف القدماء.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان ص ٥٨٥.

(٤) ابن بطوطة: تحفة النظّار ص ٥٩٧ ـ ضمن تعريف القدماء: (ابن بطوطة هو: أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي).

وأبو العلاء المعّري عربي خالص، ونسبه البعيد منته إلى تنوخ، وهم كما يذكر ابن العديم من اكثر العرب مناقب وحسباً، ومن أعظمهم مفاخر وأدباً، وقد أنجدوا في الجاهلية ملك الروم بعد أن هزمه الفرس، ثم حاربوا الفرس منفردين وأظهروا عليهم(١).

ونسب المعرّي القريب في بني سليمان، وفيهم العلم والرياسة وأبوه من العلماء، وتولّى العديد من أجداده قضاء المعرّة، وظلّ في بني أخيه حتى دخلها الفرنج سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة(٢).

وأمه من بني سبيكة الحلبيين، فقد كانوا من ذوي المروءة والشرف والكرم ونبل الاخلاق والحرص على صلّة الرحم، ومن ذوي الأسفار طلباً للجاه والمجد ـ يقول أبو العلاء في رثائه لأمّه:

وكـــم لـــكِ مـن أبٍ وَسَـــمَ الـــليـــالـــي
عـــلى جبـــهـــاتِـــهـــا سِـــمَـــةَ الـــلّـئـــام

---

(١) ابن العديم: الانصاف والتحرّي ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩ ـ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٥ ـ ضمن تعريف القدماء.
(٢) ياقوت الحموي معجم الأدباء ص ٧٠ (ضمن تعريف القدماء).

مــضــى وتــعــرُّفُ الأعــلامِ فـيــه
غــنــيٌّ الــوشْــمِ عــن ألــفٍ ولام[1]

فدلالات المكان والأصل العربي الخالص والشامخ جاهلياً وإسلامياً، كفيلة كلها إذا ما اتصلت بذات مرهفة حادة الذكاء، أن تنتمي بها ما نمته لدى أبي العلاء من شعور متعاظم وروح إنسانية مرهفة، وملكات عقلية أجمعت المصادر الدراسية قديماً وحديثاً على أنها تكاد تكون من الخوارق.

وأبو منصور الثعالبي يورد في تتمة اليتيمة عن أبي الحسن المصيصي الشاعر قوله:

«لقيت في معرّة النعمان عجباً من العجب، رأيت أعمى شاعراً ظريفاً، يلعب الشطرنج والنّرد، ويدخل في كل فنّ من الجدّ والهزل، يكنى أبا العلاء، وسمعته يقول: أنا أحمد الله

---

(١) سقط الزند: ص ٤٥ ـ وَسْمَ الليالي: أثر فيها يبكي ـ يريد أنه ذا نسب عريق. الأعلام: الواحد علم، والدال على نفسه من دون ألف ولام التعريف.

ـ كذلك شروح سقط الزند /١٤٧٣/٤ ـ دار الكتب القاهرة ١٩٤٨ م.

ـ القصيدة على البحر الوافر:

مــفــاعــلــتــن مــفــاعــلــتــن فــعــولــن
مــفــاعــلــتــن مــفــاعلتــن فــعــولــن

على العمى، كما يحمده غيري على البصر، فقد صنع لي، وأحسن بي، إذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء»[1].

وتوفي أبو العلاء المعَري يوم الجمعة الثاني من شهر ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ[2]. وعمره ستة وثمانون عاماً، شائع الذكر عالماً باللغة، جيِّد الشعر، رفض الدنيا، وفرض غاياتها فعمل بما علم، وتداوى باليأس من مطامعها، وداري الناس بترك حظه لهم، ومع هذا ظلم. نفض يديه من الدنيا وساكنها، وخفض لديه قدر محاسنها، وانقطع في بيت كان له بالمعرّة لا يخرج منه إلّا إلى المسجد.

ترك أبو العلاء أكل لحوم الحيوان... وقال بمذهب البراهمة في تجنب اراقة الدماء[3].

فدلالات المكان التي أشرنا إليها، مضافة إلى الأصل العربي الخالص والشامخ في العصور الجاهلية والإسلامية، كفيلة كلها إذا ما اتصلت بذات مرهفة حادة الذكاء؛ أن تنمي

---

(١) أبو المنصور الثعالبي: تتمة اليتيمة (تتمة لكتابه يتيمة الدهر) ص ٤ ـ ٥ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٥ م. ضمن تعريف القدماء.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ص ٦٨ ـ ضمن تعريف القدماء.

(٣) ابن فضل الله العمري، (شهاب الدين): مسالك الأبصار ص ٢١٧ ـ ضمن تعريف القدماء.

شعور الرجل المتعاظم، على أن عراقة الأصل والمنشأ تراث حيّ بأعراق بني البشر، فأبو العلاء قد وهب الروح الإنساني المرهف، وامتلك ناصية الإرادة الصلبة، والجرأة في اعلان آرائه بحيث أجمعت مصادر دراسته قديماً وحديثاً على أنّ ملكاته العقلية والارادية تكاد تكون من الخوارق.

وقد أساء الدهر إلى أبي العلاء بفقد البصر وضعف الجسم وموت الأهل وقلّة المال، ومع ذلك فإنه كان يحيط بمعارف ـ في اللغة خاصة ثم في الأدب والتاريخ والمدارك الفكرية ـ لا تتأتى أحياناً لنفر من المبصرين، كما سنبيّن ذلك في سيرة الرجل الثقافية.

ثقافة أبي العلاء:

يورد أبو منصور الثعالبي في تتمة اليتيمة عن أبي الحسن المصيصي الشاعر قوله: «لقيت بمعرّة النعمان عجباً من العجب، رأيت أعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من الجد والهزل، يكنى أبا العلاء، وسمعته يقول: أنا أحمد الله على العمى، كما يحمده غيري على البصر، فقد صنع لي، وأحسن بي، إذ كفاني رؤية الثقَلاء البغضاء»[1].

فهذا الاستعداد العقلي المبهر والذي فطر عليه أبو العلاء منذ حداثته وابتداءً بتكوينه الثقافي. فقد أخذ العلم عن والده ومعلميه إلى أن بلغ سن العشرين، حيث بالغ بالأخذ بالناحية اللفظية في شعره ونثره، وجاء بالنادر من الصيغ والكلمات كأسماء الحيوان والنبات، والالفاظ الجغرافية والتاريخية والفلكية، وتطرق إلى علوم القرآن والحديث والفقه وسائر علوم العربية. حتى عدّت لزومياته دائرة معارف موجزة.

---

(١) أبو منصور الثعالبي: تتمة يتيمة الدهر ص ٤.

وقد قسّم الاستاذ أنيس المقدسي تحصيل المعريّ للثقافة إلى مراحل ثلاث:

أ ـ المرحلة التحضيرية حتى بلوغه العشرين من العمر في المعرّة وحلب.

ب ـ زيارات المعريّ لمكتبات الشام بين العشرين والثلاثين من عمره.

ج ـ زياراته لبغداد بين الخامسة والثلاثين والسابعة والثلاثين(١).

أما الدكتور طه حسين فقد أسهب في الحديث عن حياته وثقافته ومما جاء عنه قوله: نظم أبو العلاء شعره منذ بلغ الحادية عشرة، وبقي ينظمه إلى أن مات. وإذ كنا قد جعلنا حياته أطواراً ثلاثة: أحدها طور الصبا وينتهي سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، حين بلغ العشرين، والثاني طور الشبيبة، وينتهي سنة أربعمائة، حين عاد من بغداد، والثالث طور الكهولة والشيخوخة، وينتهي بموته... ويستطرد الدكتور طه حسين قائلاً: فأما شعره في طور الحداثة فتكثر فيه المبالغة، ويظهر فيه التكلّف، وتنقصه متانة اللفظ ورصانة الأسلوب،

---

(١) أنيس المقدسي: بحث بعنوان: بيئة المعري وأثرها في شعره ص ٩٦٢ ـ عدد الهلال الخاص عن أبي العلاء ـ القاهرة: يونيو ١٩٣٨ م.

وإتقان المعنى. وأما شعره في الطور الثاني فتكاد تغلب عليه المبالغة ولكن حظّه في التكلّف ينقص، وقسطه من المتانة يزيد وتمثيله لعواطف الشاعر يصحّ... أما شعره في الطور الثالث فقد صبغه بصبغة التشدّد في كل شيء، وكلّفه التزام ما لا يلزم في أعماله.

تراث أبي العلاء:

وتراث أبي العلاء يتّسم بالثقافة الموسوعية بالنسبة لمعارف الإنسان على أيامه. فالعلم قد ملك حياته، واعتمد على نفسه في التحصيل العلمي أكثر مما اعتمد على الشيوخ والأساتذة. راجع ابن العديم في كتابه الانصاف والتحريّ.

نظم المعرّي الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة[١]. وكان عالماً لغوياً شاعراً[٢]. من مؤلفاته:

أ ـ «ذكرى حبيب» اختصر فيه ديوان أبي تمام حبيب وشرحه.

ب ـ «عبث الوليد» يختص بديوان البحتري.

ج ـ «معجز أحمد» يختص بديوان المتنبي.

فقد تكلّم على غريب أشعارهم ومعانيها ومآخذهم من غيرهم، وما أخذ عليهم وتولّى الانتصار لهم، والنقد في بعض المواضع عليهم.

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ص ١٨٢.

(٢) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ص ١٨٦ (وهو إسماعيل بن علي بن الأفضل).

ومما أعطاه في الشعر والنثر نذكر:

١ ـ سقط الزند: شعره في أيام شبابه وقبل رحيله إلى بغداد.

٢ ـ الفصول والغايات: في تمجيد الله تعالى والعظات، وهو كتاب موضوع على حروف المعجم، وأراد بالغايات القوافي، لأن القافية غاية البيت. وقيل إنه عارض السّور والآيات، تعديّاً وظلماً.

٣ ـ أقليد الغايات: وهو يشتمل على تفسير اللغز.

٤ ـ الأيك والغصون: ويعرف بكتاب «الهمز والردف».

٥ ـ تاج الحرّة: وهو كتاب في عظات النسّاء.

٦ ـ سيف الخطبة: وهو يشتمل على خطب السنة.

٧ ـ وقفة الواعظ.

٨ ـ دعاء الساعة.

٩ ـ دعاء الأيام السبعة.

١٠ ـ عظات السور.

١١ ـ ديوان الرسائل.

١٢ ـ رسالة الغفران: وقد هاجم فيها الباطنيات المألوفة.

١٣ ـ ضوء السقط: ويشتمل على تفسير ما جاء في سقط الزند من الغريب.

١٤ ـ لزوم ما لا يلزم: أو اللزوميات وهو سفره الخالد الذي بني على حروف المعجم.

١٥ ـ راحة اللزوم: شرح فيه ما ورد في لزوم ما لا يلزم من الغريب.

١٦ ـ جامع الأوزان: وفيه شعر منظوم على معنى اللغز.

١٧ ـ ملقى السبيل: وهو كتاب وعظ ونثر ونظم. وغيره من المؤلفات والرسائل[١].

ومما جاء عن العباس المكي في نزهة الجليس، عن أبي العلاء وتبحرّه في اللغة والعلم، أنه قال: «اللغوي الشاعر الماهر، أحد فحول الفضلاء العاملين، الصلحاء الزاهدين. فاضل سار ذكر فضله في البراري والبحور، وأجمع على تقدمته الجمهور، بأنه فارس المنظوم والمنثور، أقرّ له بالبلاغة والأدب كلّ بليغ وأديب، ويشهد له قوله من لاميّته التي هي أحلى من لام عذار الحبيب، وأغلى من اللؤلؤ النفيس الرّطيب، والتي يذكر فيها:

---

(١) ياقوت الحموي: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ص ١٠٠ وما بعدها.
ـ كذلك ابن العديم في الانصاف والتحري ص ٩٧ حتى ٥٤١ (ضمن تعريف القدماء).
ـ كذلك القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة ص ٣٩ وما بعدها (ضمن تعريف القدماء).
ـ كذلك الذهبي: تاريخ الإسلام ص ٢٠١.

وإنـــي، وإن كنـــت الأخـيــر زمـانــه
لآتٍ بـمـــا لـم تـسـتــطعــه الأوائــل[1]

(١) العباس المكي: نزهة الجليس ص ٣٥١ (ضمن تعريف القدماء).
والقصيدة على وزن الكامل:
مـتـفـاعـلن مـتـفـاعـلن مـتـفـاعـلن
مـتـفـاعـلن مـتـفـاعـلن مـتـفـاعـلن

عوامل أثّرت في تكوين شخصية المعرّي وأفكاره:

أ ـ محنة العمى وأثرها في توجيه فكره.

ب ـ الأبوان الرحيمان جنة ضائعة.

ج ـ الرحلة البغدادية.

أ ـ محنة العمى وأثرها في توجيه فكره:

يذكر المعرّي:

ولطالما صابرتُ ليلاً عاتماً
فمتى يكونُ الصّبح والإسفار(١)

أولى محن المعرّي، وأول سجن أفقده الجمال والتمتع به؛ أو ليس سمع المعرّي عن غواية حظ، أو سحر لون، فشاقه أن يرى، أو ليس هي غصّة وراء محجريه يغذيها اللون الأحمر الضئيل، والذي كان كل ما وعته ذاكرته من عهد النور عندما كان طفلاً؟

---

(١) اللزوميات: ١/٤٦٤ (دار صادر بيروت ١٩٦٠ م).
(اسفر الصبح ـ أضاء) البيت على وزن الرجز:
مستفعلن مستفعلن مستفعلن
مستفعلن مستفعلن مستفعلن

إنها أولى محنة بلا ريب، فالدلائل تشير إلى أنَّ أبا العلاء فقد بصره اثر إصابته بالجدري. وقد وجه رسالة إلى داعي الدعاة الفاطميين أبي نصر هبة الله بن أبي عمران يقول فيها: «وقد علم الله أن سمعي ثقيل، وبصري عن الابصار ثقيل، قضي عليّ وأنا ابن أربع، فلا أفرّق بين البازل وبين الربع. ثم توالت محني حتى أشبه شخصي العود المنحني، ومنيت في أخرى العمر بالإقعاد، وعداني عن النهضة عاد. وأما اشتهار اسمي: فقد شهد الله - جلّت عظمته - أني لا أرغب فيه[1]».

فأبو العلاء فقد بصره اثر مرض الجدري وهو في سن الثالثة من عمره، وكان يقول: لا أعرف من الألوان إلا الأحمر، لأني البست في الجدري ثوباً مصبوغاً بالعصفر، لا اعقل غير ذلك[2].

وقد سمّى نفسه رهين المحبسين للزوم منزله وذهاب

---

(١) ياقوت الحموي: ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب ص ١٢١ - ١٢٢ (ضمن تعريف القدماء).
احسان عباس: رسائل أبي العلاء ص ١٠٣ - دار الشروق بيروت ١٩٨٢ م. (البازل: الجمل. الربع: الفصيل. نقيل: كليل: عاد بحائل).
(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ص ٢٦٥.

بصره، وزاد عليهما سجناً ثالثاً، فإذا هو سجين لثلاثة سجون:

أراني في الثلاثة من سجوني،
فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي،
وكونِ النَّفس في الجسم الخبيث[1]

فخير ما ينطبق عليه قول المتنبي:

أظمتني الدّنيا فلمّا جئتها
مستسقياً مطرت عليَّ مصائبا

ومما لا شكّ فيه أنّ عمى أبي العلاء كان رافداً غزيراً من روافد تشاؤمه، وليس هو خالق التشاؤم؛ لأنّ الكثيرين من المكفوفين كانوا أكثر تفاؤلاً وإقبالاً على الحياة من المبصرين، أمثال: ابن الرومي ـ بشار بن برد ـ شوبنهاور على أنّ عوامل البيئة وضروب الفساد السياسي والديني والخلقي كلها، لها في نفسه صدى، وقد أجج العمى نفسه المتوقدة، حيث سار على نظام قاس يريد به النجاة من فساد

(١) اللزوميات: ١/٢٤٩ دار صادر بيروت ١٩٦٠ م. (النبيث: الشرير).
على وزن المتقارب:
فعولن مفعولن فعولن فعولنِ

البشرية وعناء الآمال واللذات، إلى أن تساوى عنده كل شيء على عتبة العدم.

ب ـ الابوان الرحيمان جنة ضائعة:

ولد أبو العلاء في بيت علم وأدب وأصالة إنسانية، وتزوّد بزاد الاطلاع الواسع، إلى أن كانت صلته بتراثه عاملاً هاماً في تأصيل الصفات الثقافية والنبل، فتراث الآباء فردوس أرضي للابناء، وفقدهما إنما فقد الفردوس الضائع عند أبي العلاء.

فوالده توفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة[1]. بحيث كان عمر الولد اثنتين وثلاثين سنة، وهذا سن النضج الفكري والفني، وكما يظهر في رثاء والده بقصيدة تعتبر من عيون الشعر في موضوعاتها وديباجتها وفي معانيها ومدلولاتها.

ومنهم من ذكر أن والد المعرّي «عبد الله» توفي بحمص سنة ٣٧٧ هـ[2] حيث كان عمر أبي العلاء أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة.

ومّما جاء في رثائه:

---

(١) ابن العديم: الانصاف والتحرّي ص ٤٩٣.
(٢) ياقوت الحموي: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ص ٦٩.

نقمت الرّضى حتى على ضاحك المزن،
فــلا جــادني إلاّ عبــوسٌ مـن الـدُّجن
فـليت فـمي، إن شــام سنّي تبسّـمي
فم الـطعنـة النجـلاء تــدمى بــلا سنّ
أبي، حكمت فيــه الليــالـي ولم تــزل
رمـاح المنـايـا قـادراتٍ على الـطّعن[1]

وإذا بالألام تثقل مشاعر أبي العلاء بالغربة، وتضرم نيرانها في فؤاده، وما سوى الظلام يعي ذاك العزاء. وإذا بالنحيب يقوى عنده ويشتدّ بفقد سلوته المتبقية والتي كان يدّخرها عزاء يضمد به جراح الأيام فهالته الفاجعة حتى بات لا يفصل بين الحمد لله والصلاة على نبيّه وبين مدامعه ووجده وأحزانه لفراقها، فيقول:

«على أني والله قد أعلمتها أني مرتحل وأن عزمي على ذلك جاء مزمع فأذنت فيه».

فانا لله وانا إليه راجعون، وله الحمد ممزوجاً به الدّمع، وصلّى الله على سيدنا محمد وعزته، صلاة يثقل بها لساني حزناً، وترجح في المحشر قدراً ووزناً. وحزني لفقدها كنعيم

---

(١) سقط الزند: ص ١٨ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٠ م القصيدة على بحر الطويل.

أهل الجنة، كلما نفد جدّد. . . لا آمل بعدها خيراً، ولا أريد في المحن إلا ايضاعاً وسيراً»[1].

فقد سحقت مشاعر الحزن شاعرنا، فأيقن ملازمته الآلام، وكمن طيف امه في يقظته ومنامه بعد أن غشي نفسه الأسر العميق، حتى تمنّى صادقاً قضاءه قبلها، وكأنه طفل رضيع دون الفطام أصبح أسيراً للحاجة والعجز، يشوق قرب النشور لينهض من لواعج البؤس بفرحة لقاء الأحبة. .

فيذكر في رثائه لأمه:

سمعت نعيُّها صمّا صمام، وإن قال العواذل لا همام
وأمّتني، إلى الأجداثِ، أمٌّ، يعزُّ عليّ ان سارت أمامي

. . . .

فليت أذين يوم الحشر نادى، فأجهشت الرُّمام إلى الرِّمام[2]

---

(١) ياقوت الحموي: ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب ـ ص ٨٣ (ضمن تعريف القدماء).

توفيت والدة المعرّي أثناء وجوده في بغداد.

(٢) سقط الزند: ص ٣٩ ـ القصيدة على بحر الوافر ـ

(الصماء: الداهية الشديدة. صَمَام: من أسماء الداهية مبني على ـ

وهكذا كان لوفاة والدته بمعرة النعمان بعد موت أبيه بسنوات خمس، وإبان عودة الشاعر من رحلة بغداد سنة ٤٠٠ هـ (راجع ابن العديم في الانصاف والتحرّي ص ٥٤٢) فكان لهذا الوقع في نفس الشاعر عامل هامّ في حياته الفكرية والعملية، بذل أبو العلاء آخر ما كان يملك من ثقة الدهر، واطمئنان الأيام....

ج ـ الرحلة البغدادية:

رحل أبو العلاء إلى بغداد، لطلب العلم والاستكثار منه، والاطلاع على الكتب ببغداد، ولم يرحل لطلب دنيا ولا رفد... فعن أبي محمد الحسن بن الفرج البحتري الأديب، في آخر سقط الزند بروايته عن الخطيب التبريزي ـ وخط التبريزي عليه ـ ورحل «يعني أبا العلاء» إلى بغداد سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، ودخلها سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وأقام بها سنة وستة أشهر، ولزم منزله عند منصرفه من بغداد، منذ سنة أربعمائة، وسمىّ نفسه «رهين المحبسين» لهذا، ولذهاب بصره(١).

= الكسر. لا همام: مبني على الكسر: لا هم. أمّتني: تقدمتني. الرّجام: القبور. الأذين: المؤذن. أجهشت: فزعت إلى غيرها أي اجتمعت العظام البالية وتلاقت).

(١) ابن العديم: الانصاف والتحري ص ٥٤٢.

ويذكر المعري في رسالة إلى أهل المعرّة يعلمهم فيها برجوعه واعتزامه العزلة فيقول، ما سافرت استكثر من النّشب، ولا أتكثّر بلقاء الرجال، ولكن آثرت الاقامة بدار العلم، فشاهدت أنفس مكان لم يسعف الزمن باقامتي فيه[1].

ففي دار العلم ألف أبو العلاء الكثير وألفوه، ولم يترك بيتاً من بيوت العلم والأدب ببغداد إلاّ ولجه، ولا بيئة فلسفية إلاّ اشترك فيها، ولا مجلساً أدبياً إلاّ حضره.

فشهرة الرجل قد سبقته إلى بغداد، حيث صادف عند وصوله وفاة الشريف الطاهر أبي أحمد الحسن بن موسى والد الشريفين الرضي والمرتضى، فدخل أبو العلاء للعزاء وأنشد قصيدة رثى بها الفقيد يقول في بعضها:

أودى فليت الحادثات كفاف
مال المسيف وعنبر المستاف[2]
الطّاهر الآباء، والأبناء، وال
أثواب، والآراب، والآلاّف[3]

(١) ياقوت الحموي: ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب ص ٨٩.
(٢) سقط الزند: /٢١ (المسيف: من أساف الرجل ذهب ماله.
المستاف: الشامّ.
(٣) الآراب: الحاجات. الالاف: الواحد أليف أي الصديق.

من شاعر، للبين، قال قصيدة،
يرثي الشريف على روي القاف[1]

فعرف ولدا المتوفى من فورهما أنه أبو العلاء، ورفعا منزلته واكرماه[2]. ولكن هذه الرفعة جاءت آنية، حيث كان يتعصّب للمتنبي ويزعم أنه أشعر المحدثين، ويفضله على بشار ومن بعده، مثل أبي نواس وأبي تمام، وكان المرتضى يبغض المتنبي، ويتعصّب عليه، فجرى يوماً بحضرته ذكر المتنبي، فتنقصّه المرتضى، وجعل يتبع عيوبه، فقال المعرّي: لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلاّ قوله: «لك يا منازل في القلوب منازل». . . لكفاه فضلاً! فغضب المرتضى وأمر فسحب برجله، وأخرج من مجلسه، وقال لمن بحضرته: أتدرون أيّ شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة، فإن للمتنبي ما هو أجود منها لم يذكرها؟ فقيل: النقيب السيّد أعرف. قال: أراد قوله من هذه القصيدة:

وإذا اتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأنيّ كامل

وحدث أن دخل على أبي الحسن علي بن عيسى الرّبعي

(١) على روّي القاف: أي على: غاق غاق: حكاية صوت الغراب. كفاف: معدول: جعله اسماً لكف الرّوي).
القصيدة على بحر الرجز.

(٢) ابن العديم: الانصاف والتحري ص ٥٤٤ (ضمن تعريف القدماء).

يقرأ عليه، فلما دخل إليه قال علي بن عيسى: ليصعد الاسطبل، فخرج مغضباً ولم يعد إليه. والاسطبل في لغة أهل الشام «الأعمى».

ويروى أنه دخل يوماً إلى مجلس الشريف المرتضى، فعثر بإنسان. فقال له: من هذا الكلب؟ فقال: الكلب؟ فقال: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً (انظر ابن الانباري؛ أبو البركات عبد الرحمن في نزهة الالبا).

فمثل هذه المعلومات القاسية واضرابها، إذا صحّت، قد واجهت أبا العلاء من أناس غير عاديين، فجعلته دون رفع راية المجد السامية في أرض بغداد، وعلى رغم ممن رفع مكانته وأحبّه واراد بقاءه، رجع إلى بلده مع قول الشاعر:

إذا لم تستطع أمراً فذره
وجاوزه إلى ما تستطيع

وهذا البيت لعمرو بن معد يكرب، وضمن رسالة بعث بها المتنبي إلى خاله (راجع ياقوت الحموي في ارشاد الأديب).

وجانب آخر عجّل في عودته، هو الحال الساسية في العراق، وحسد الحسّاد، ومرض والدته وفقره، فكان جرحه عميقاً ومشاعره حسّاسة، فازداد يقينه في عيوب النفس البشرية، فانبرى يصارع الزمن والحياة بمعركة دون البشر،

معركة مع الفكر والعطاء متخذاً من جدران بيته في معرّة النعمان مرصداً يتقوّى به على الأحلام الزائفة، ويبرأ من الشّر البشري.

ولكن هيهات له من قناعة باعتزال الناس، ومن زهد وتقشف، فقد بقيت بغداد أمنية شوق وحنين لزمه طول حياته، يقول:

- ألا زوّدوني شربة، ولو أنّني
قدرت، إذا أفنيت دجلة بالجَرْع

★★★

- متى سألت بغداد عني، وأهلها
فإنّي عن أهل العواصم سأّال

عصر أبي العلاء المعرّي

أ ـ المناخ السياسي:

إذا كانت العناصر السلبية كما أسلفنا هي التي وجهت فكر أبي العلاء، وأثّرت في شخصيته؛ فإنَّ المناخ السياسي والاجتماعي، والفكري، والاقتصادي، كلها نوازع مؤثرة دفعت الرجل إلى العزلة والتقشف والتعفف، وجاءت به وحيد زمانه.

فالثورة العباسية قامت على البنية السياسية ـ الاقتصادية التي كان يمثلها الحكم الأموي، ورافق ذلك: الثورة على البنية الثقافية ـ الاجتماعية، وكانت مبادىء الثورة تتلخص في ثلاثة أمور هامة:

١ ـ العقل قبل النقل.

٢ ـ الحقيقة قبل الشريعة.

٣ ـ الإبداع قبل الاتباع.

فالاتباعية أو النقلية كانت تقوم على القول إن «الواجبات كلها بالسمع»، وإن العقل، لا يحسن ولا يقبح، ولا يقتضي ولا يوجب، وهذا يعني أن الشرع قبل العقل فالشرع يوجب والعقل يصدق.

وقد عكس الاعتزال هذا الموقف، فقدم العقل على الشرع، فأصبح العقل هو القوة على اكتساب العلم، وأنه أصل المعرفة.

أما في مناخ الباطنية الإمامية ـ نشأت الحركة الصوفية وبلغت صيغتها القصوى، في القرن الثالث الهجري، وقد اعتبرت الشريعة رمزاً لمعنى باطن، فالإسلام ليس في جوهره شريعة، وإنما هو الحقيقة، والمسلم ينتمي إلى سر. أما الإسلام فهو القلب.

ويأتي الابداع في الاصطلاح الفلسفي كإخراج المعدوم من العدم إلى الوجود. وهو احداث شيء على غير مثال سابق. وقد نفت الثورة حجية النقل بذاته، إذا لم يكن مؤيداً بالعقل، فالعقل هو الأساس والقياس. وهو فوق هذا يهدم الراهن المعروف ويولد الجديد غير المعروف. أما الامن فقد حرم لضعف الحكومات واشتغالها بقمع المتمردين وردّ الغارات، وكانت حاضرة الخلافة ضعيفة لا تؤثر العدل ولا تفكر فيه.

أما بلد المعرّي «معرّة النعمان» وهي من أعمال حلب التي شمخت بشموخ سيف الدولة الحمداني، سرعان ما أفل نجمها عندما شهدت خلفاء ضعفاء...

وتذكر بنت الشاطىء مثل هذا الضعف، والصراع أيام أبي العلاء إذ تقول:

«كان في الجاهلية بين روم وفرس وعرب، وفي العصر الأموي بين الحجاز والعراق، وفي عصر أبي العلاء بين العباسيين والفاطميين، والروم منهما غير بعيد، وهو يتنفس في هذا الجو وعلى بابه تصطخب الأمواج، يلتفت يميناً، فإذا العراق فيه خلافة عباسية سنية قائمة، بايعها جمهور المسلمين، ورسّخها عمر طويل قارب ثلاثة قرون، ويلتفت يساراً فإذا مصر قريبة منه، وقد استقرت فيها دولة فاطمية قوية فتية، في عنفوان نشاطها وضجيج دعوتها»(١)..

فللواقع السياسي الأليم يجنح وجدان الادباء والشعراء، ويستخلصون القيم والعظات، وكان لا بدّ لأبي العلاء من أن يتأثر بالاحداث الجسام التي عصفت بالشام والعراق وخاصة حلب، فإذا الخزايا والمهانات تثقل كبرياء كلّ مسلم وكلّ عربي، فبعدما كان الخليفة رمزاً للدين والتقوى، بات رمزاً باهتاً، والاصقاع مرتعاً للفتن والأهوال والويلات.

وأبو العلاء المعري خير من صوّر تلك الأحداث الجسام، وذلك الواقع الأليم فيقول:

---

(١) عائشة عبد الرحمن: أبو العلاء ص ٩٩ (المؤسسة المصرية العامة).

ـ يسوسون الأمور بغير عقل،
فينفذ أمرُهم، ويقال: ساسة[1]

★★★

ـ إن العراقَ وانَّ الشّام، مذْ زمنٍ،
صفران، ما بهما للملك سلطان[2]

★★★

ساس الأنامَ شياطينٌ مسلّطة
في كلّ عصر، من الوالين، شيطان

★★★

ـ ومهلك دولة، وقيام أخرى
كذاك الدّهر أمر بعد أمر[3]

(١) اللزوميات: ٢/٣٥.
(٢) اللزوميات: ٢/٥٠٢.
(٣) اللزوميات: ١/٥٤٨.

ب ـ المناخ الاقتصادي:

يذكر المعري:

يقولون: في المِصر العدولُ، وإنّما
حقيقة ما قالوا: العدول عن الحق[1]

فالحياة الاقتصادية في بلد من البلاد، موقوفة على العدل والأمن والسّلم.

والأمّة الإسلامية أيام أبي العلاء قد حرمت من العدل، لأن دولاً تقضي حياتها في الحروب، لم تستطع أن تقيم الحق أو تبطل الباطل، كما وانها حرمت من العدل لضعف حكوماتها باشتغالها في ردّ الغارات، وقمع الفتن.

وحرمت أيضاً من السّلم بما جرى على أراضيها من غارات للروم والفرنج، ومن ضعف حاضرة الخلافة.

وفوق هذا وذاك وجدت طبقتان في الأمة العربية الإسلامية، طبقة الأغنياء المترفين، وطبقة الفقراء المعدمين، وليس لهما ثالث، فالحالة الاقتصادية السيّئة كما يذكر

---

(١) اللزوميات: ٢/٢٠٢.

الدكتور طه حسين هي التي دفعت المستنصر خليفة مصر، إلى أن يرغب إلى قيصر فيطلب منه أن يمير مصر، بعد أن كانت مصر هي التي تمير قسطنطينية ورومية، في التاريخ المتوسط والقديم.

وكلما كانت السياسة حكيمة وقوّية متطلّعة إلى المستقبل كانت إيجابياتها على الوضع الاقتصادي. فالحياة السياسية أيام المعرّي كانت متفسّخة ومضطربة ضمن أهواء ومهبات الريح، فكان الخراب الاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي، وكانت حقوق الأفراد غير مستقرة بين فتن ومؤمرات وسلب، بحيث غلت الأسعار وعدمت الأقوات، فمات الكثير من الأبرياء جوعاً ووباء.

ولهذا الواقع الأليم يصف لنا ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) صنيع الإنسان بأخيه الإنسان، وفعل الطبيعة العاتية به، فإذا الزلازل والفيضانات والحرائق، ما يكشف الوضع جلياً، وفي حوادث سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة يقول ابن الأثير:

«في هذه السنة استعمل العزيز بالله الخليفة العلوي على دمشق وأعمالها بكجور التركي مولي قرعويه أحد غلمان سيف الدولة بن حمدان، وكان له حمص، فسار منها إلى دمشق

وظلم أهلها، وأساء السير فيهم. ؛. في ربيع الأول آنقضّ كوكب عظيم أضاءت له الدنيا، وسمع له دويّ الرعد الشديد، وفيها غلت الأسعار بالعراق وما يجاوره من البلاد، وعدمت الأقوات فمات الناس جوعاً[1].

(١) ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم): الكامل في التاريخ ص ١٢٢/٧ ـ دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٨).

ج ـ المناخ الاجتماعي:

شهد المجتمع العربي الإسلامي أيام أبي العلاء تمزقاً سياسياً، وتصدعاً اقتصادياً، ونشأت خلافات عنيفة في جميع الأصعدة.

وعصفت فيه سلبيات متعددة وخطايا كثيرة باسم الدين، وهيمن الشر على البقاع، وطغى الفساد على الاصلاح، وغاب عن كرسي الحكم السلطان العادل والوازع الديني، كما اندثرت الأخلاق والمثل السامية. وركب الناس الجوع، فانتشرت الفوضى والتكالب على المطامع والنزوات.

في هذا الجو القاتم والموبوء فقدت العوامل المؤثرة في الصلات بين أفراد الأمّة؛ ابتداءً من رأس الهرم حتى القاعدة الشعبية المسحوقة. ففي السياسة يعمّ الفساد ويطغى على النفوس، وفي الدين يتربّع الضعف والتشرذم، وفي الاقتصاد يسود الاختلال، مثل هذه العوامل تساعد على تفكك المجتمع وتمزيق أوصاله.

فالدلائل تشير إلى ضعف الخلافة، وتربّع الولاة من

الغرباء على كرسيّ الحكم، وكثرت الجواري باختلاف هويتهنّ، وانحرفت التربية بشذوذ السلوك والأخلاق.

فالجندي يشير إلى العوامل التي ساعدت على تفكك المجتمع وتمزيقه، فيقول في (الجامع ١/١٣١):

«ساعدت عوامل عدّة على تفكك المجتمع وتمزيق أوصاله، من تلك العوامل تولي الأعاجم والغرباء الحكم، وقيام أغلبهم ـ قصداً أو طبعاً ـ بإفساد الحياة العربية الإسلامية والاستجابة لمطامعهم، ومنها كثرة الجواري من الجنسيات المختلفة والتأثير المدمر لذلك في تنشئة من ينجبهم العربي من أولاد تتباين ميولهم وتنحرف وفقاً لتباين تربية أمهاتهم. ومنها تعدد الزوجات وما يجره من انقسام بين الأخوة والأخوات، ومنها ظلم الحكام وما يستتبعه من شيوع قيم الخنوع والخوف والنفاق».

فمن البديهي أن تظهر الصورة كئيبة عند أبي العلاء، في هذا الجو القاتم، فالخيانة وراثة، والناس أصحاب غدر وخبث، يقول:

ـ سجايا كلّها غدر وخبث
تـوارثـهـا أنـاس عـن أنـاس[1]

---

(١) اللزوميات: ٢/٥٦ على وزن البحر الوافر.

ـ أنـافق في الحيـاة، كفعـل غيـري،
وكـلّ الـنـاس شـأنـهـم الـنّـفـاق[١]

ـ وبيعت بـالـفلوس، لـكـل خـزي،
وجـوه كـالـدنـانـيـر الـحـسـان[٢]

ـ ورجـال الانـام مـثـلُ الـغـوانـي
غـيـر فـرق الـتـأنيث والـتـذكيـر[٣]

فالمعري خير مَنْ يصوّر الواقع الاجتماعي المؤلم، حتى لتراه يجنح إلى التعميم في تحليله المأساوي؛ فكل كائن حي بخيل، والغضنفر ثعلب في اللؤم، والناس كالنسناس لصوص، وهم في الظلم أهل تشابه بين الجشع والشهوات والأطماع، فيقول:

ـ قـد عـمّـنـا الـغشّ، وأزرى بـنـا
فـي زمـن أعـوز فـيـه الـخـصـوص

. . . .

. . . .

وكـلّ مـن فـوق الـثـرى خـائـن
حتى عـدول المصـر مثـل اللصـوص[٤]

(١) ١٨٤/٢ على وزن البحر الوافر.
(٢) ٥٦٧/٢ على وزن البحر الوافر.
(٣) ٦٠١/١ على وزن البحر الخفيف.
(٤) اللزوميات: ٨٨/٢ .

ـ قد فاضتِ الدنيا، بأدناسها
على برياها وأجناسها
وكلّ حيٍّ فوقها ظالمٌ،
وما بها أظلم من ناسِها[1]

★★★

ـ نُسِخَ المعاشرُ، فالغضنفر ثعلب
في لؤمه والنّاس كالنَّسناس
عربٌ وعجم، دائلون، وكلنا
في الظلم أهل تشابه وجناس[2]

ويقول أيضاً:

ـ بُعدي من الناس برء من سقامهم
وقربهم، للحجى والدين، أدواءُ[3]

(١) ٢/ ٦٣.
(٢) ٢/ ٦٢ (دائلون: منقلبون من حالة إلى حالة. نسخ: من النسخ: انتقال الروح من جسم إلى جسم).
(٣) ١/ ٤٨ (الحجى: العقل. أدواء: واحدها داء: مرض).

د ـ المناخ الفكري:

كان عصر أبي العلاء المعرّي من أضخم العصور العربية الإسلامية فكرياً، برغم ما اعتراه من اضطراب سياسي وانحطاط خلقي، ومن فتن وأهوال. فالعلّامة عبد الله العلايلي يعلّق على اثراء الفكر في القرن الرابع الهجري، ويرجعه إلى المزاوجة الحضارية، فيذكر:

فقد أفسح المجتمع العربي من جوانبه قبل قرنين لكل فكر وكل ثقافة، وتحرك المجتمع بما فيه من كفايات واستعدادات، حركته الواسعة الخطى، الجبارة التدفق.

وكان هذا الالتقاء والمزاوجة الحضارية، خصب أي خصب وثراء أي ثراء في كل نواحي المعرفة، كما كان هذا الالتقاء أيضاً باعثاً لأعاصير شتّى دارت بالفكر وبالعقيدة في مدارات مضطربة ومضطرمة، فتركت أخدوداً هنا ونتوءاً هناك» (انظر عبد الله العلايلي في المعرّي ذلك المجهول الأهلية للنشر).

فالمناخ الثقافي أيام المعرّي، قد اتّخذ سمة إنسانية في الربوع العربية الإسلامية، فالعواصم بؤرة للاشعاع

الحضاري، انصهرت فيها تجارب الشعوب، من بابلية، وآرامية، وسريانية، وفارسية، وبيزنطية، ويونانية، وهندية. . . وغيرها من الحضارات المتعدّدة.

وقد أدّى اكتمال المدارس الفكرية وما آلت إليه من الذروة، إلى صراعات مضطرمة منها:

أ ـ الصراع بين العقل والنقل.

ب ـ بين التقليد والتجديد.

ج ـ بين الاسلاموية والعروبوية ـ أعني بين اتجاهات سلفية، واتجاهات عقلية ـ تجريبية؛ فمقابل فكرة البادية والقيم الناشئة عنها والمتصلة بها، نشأت فكرة الحاضرة والقيم الناشئة عنها، والمتصلة بها، ومقابل الاتجاه الذي يؤكد على التقليد نشأ الحرص على المطابقة مع الحياة والتغير، ومقابل التعقل ورفض التخيل، نشأت الحماسة والاندفاعات التخييلية. (انظر أدونيس في الثابت والمتحول).

وكانت المعتزلة رائدة أولى في التنظير العقلي للدين، حيث أصبح الدين تعليلاً بدلاً من التعليم، وتساؤلاً لا قبولاً، وعقلاً لا نقلاً. . فالاعتزال لا يرى أنّ العقل مناقض للدين، بل يرى أنّ الدين نفسه عقل. فالتوكيد على العقل مرتبط بالتوكيد على الحرية، فلا عقل دون حرية، ولا حرية دون

عقل. ومن هنا فصل الاعتزال الدين عن الطغيان السياسي وجعل السياسة عملاً عقلياً، ومن الدين ممارسة عقلية.

وفي القرن الثالث الهجري نشأت الحركة الصوفية في مناخ الباطنية الامامية ووصلت إلى صيغتها القصوى مع أبي زيد البسطامي، والحلّاج، فالشريعة رمز لمعنى باطن، قيمتها في باطنها، والإسلام ديانة القلب، والدين ليس تراثاً وإنما هو حركة القلب، والإيمان حب وعشق.

أما الحرية القرمطية فقد تجاوزت القومية والجنس إلى الإنسان بما هو إنسان، وقدمت حكم العقل والحقيقة في ثورتها على البيئة الثقافية.

وهكذا نضج الفكر العربي الإسلامي وشمل فروع العلم والفن والفقه والأدب. وجاء القرن الرابع الهجري ليوقظ جميع حواس أبي العلاء وينبهها تنبيهاً كبيراً، وليستخرج أعمق ما في باطن الأشياء من أسرار، وليكشف عن أغرب ما فيها من خصائص.

وهكذا نضجت في القرن الرابع الهجري العلوم اللغوية، ونظمت المعاجم، ووضع كثير من كتب اللغة، واستقرت الطرق البيانية في الانشاء التي يمثلها ابن العميد، والصاحب، والصابي، والخوارزمي، وبديع الزمان،

والعسكري، والثعالبي وسواهم، وفيه بلغت العلوم الطبية والرياضية والفلسفية والطبيعية أوجها، أمثال رجالها: الرازي - الفارابي - ابن سينا - أخوان الصفا.

وفي التاريخ نتذكر كباره في النضج أمثال: المسعودي - الأصفهاني - مسكويه - ابن العديم، عدا من سبقهم في القرن الثالث الهجري أمثال الطبري واليعقوبي.

ويكفي أن نذكر من علماء الكلام: الغزالي. وفي المذاهب المتنازعة: الخوارج - الشيعة - المعتزلة - الاشعرية - الصوفية.

ففي هذا الخضم شمخ وعظم الفكر والأدب والفلسفة والفقه، وكثر شعراء المديح يتوسلون للعيش على أبواب الأمراء.

وما أعدل قول أبي العلاء في خطبة الفصيح إذ يقول:

«الشّعر إذا جعل مكسباً، لم يترك للشاعر حسباً، وإن كان لغير مكسب، حسن في الصفات والنّسب، ما لم تسبّ المحصنة، وتعد للعار المصنة، فاتّق ربّك. وإذا رأيت الشاعر فلا تقل: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ فإنّ الآية وصلت بالاستثناء وجنى السّيئة شرّ الجنى.. لا تجهلوا فضيلة

الشعر، فإنه يذكر الناس، ويحلّ عزمة الفانك، ويعطف مودة الكاشح، ويشجع الجبان.

وان اشــعــر بــيــت أنــت قــائــلــه
بــيــت يُــقــال إذا أنــشــدتــه صــدقــا[1]

(١) محمد بن عبد الغفور الكلاعي: أحكام صنعة الكلام (الجنى: ما يجنى من الشجر. البيت لحسّان بن ثابت).

العزلة والتقشف والتعفف.. عند أبي العلاء

لم يشهد التاريخ العربي والإسلامي على مدى أربعة عشر قرناً من الزمن رجلاً ارتبطت حياته بالعزلة والتقشف والتعفف ما ارتبطت بأبي العلاء المعري، بحيث أصبح علماً عليها، يلازم منزله حوالي خمسين سنة، ويمتنع عن السمك والعسل والبيض ولحم الحيوان والطير وبارد الماء صيفاً، ويفلسف امتناعه عن الزواج بنظرته الفكرية إلى الحياة.

يقول أبو العلاء: «بعد أن قضيت الحداثة فانقضت، وودعت الشبيبة فمضت وحلبت الدهر أشطره، وجربت خيره وشره، فوجدت أوفق ما أضعه في أيام الحياة عزلة تجعلني من الناس كبارح الأروى من سانح النعام، وما ألوت نصيحة لنفسي، ولا قصرت في اجتذاب المنفعة إلى حيزي، فأجمعت على ذلك واستخرت الله فيه بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم، فكلهم رآه حزماً، وعده إذا تم رشداً، وهو أمر أسري عليه بليل، قضي برقة وخبّت به النعامة، ليس بنتيج الساعة ولا ربيب الشهر والسنة، ولكنه غذيُّ الحقب المتقادمة وسليل الفكر الطويل، وما سمحت القَرون بالإياب

حتى وعدتها أشياء ثلاثة: نبذة كنبذة فتيق النجوم، وانقضاباً من العالم كانقضاب القائبة من القوب، وثباتاً في البلد أن حال أهله من خوف الروم»[١].

فالإنسان في الوجود بحاجة إلى أنيس، وزوج، وصديق وفيّ، وولد بار...

وقد يصبر المرء على البؤس والحرمان، ولكنه يخشى ظلمة الوحدة والانفراد، وأبو العلاء رقيق المشاعر، تستهويه اللذة، ولكنّ خشية الاثم ورهبة الأذى دفعتا به إلى العزلة والتقشف والخلاص من فساد المجتمع، فيقول:

- ولي مـذهبٌ في هجـريَ الأنس نـافـعٌ
إذا القومُ خاضوا في اختيار المـذاهب[٢]

★★★

- في الوَحدة الـراحةُ العـظمى، فآخ بهـا
قلبـاً، وفي الكـون بين النـاس أثقـال
إنَّ الـطبـائـع لمّـا أُلّفت جلبـت
شـراً، تـولّـد فيـه القيـل والقـال[٣]

نفض أبو العلاء يديه من الدنيا وساكنها، وخفض لديه قدر

(١) رسائل أبي العلاء: ٨٢.
(٢) اللزوميات: ١/١٤٥ دارُ صادر ـ بيروت ١٩٦٠ م.
(٣) السابق: ٢/٢٦٧ دار صادر ـ بيروت ١٩٦٠ م.

محاسنها، وانقطع في بيت كان له بالمعرّة لا يخرج منه إلاّ إلى المسجد، ولا ينهج طريقاً إلاّ إلى تهجّده، وأخذ نفسه بالقناعة حتى صارت جنة تقيه المطامع، ومنّة تقوّيه على مغالبة الأمل الطامع.

كان قانعاً باليسير. وكان له وقف يحصل منه في العام نحو ثلاثين ديناراً، قرّر منها لمن يخدمه النصف، وكان غذاؤه العدس، وحلاوته التين ولباسه القطن، وفراشه لباداً، ومما قاله: ولست أريد في رزقي زيادة ولا أوثر لسقمي عيادة (راجع لسان الميزان لابن حجر).

لقد اختار أبو العلاء العزلة ليطهر نفسه من مجالسة المنافقين، فاسمعه يقول:

ـ تخيّر، فأمّا وحدة مثل ميتة،
وأمّا جليس في الحياة، منافق[1]

★★★

ـ طهارة مثلي في التباعد عنكم،
وقربكم يجني همومي وأدناسي[2]

★★★

ـ اغنى الأنام تقيّ في ذرى جبلٍ،
يرضى القليل، ويأبى الوشي والتاجا[3]

(١) اللزوميات: ٢/١٧٨.
(٢) السابق: ٢/٤١.
(٣) السابق: ١/٢٦٤.

ـ أراني في الثلاثة من سجوني،
فلا تسأل عن الخبر النّبيث
لفقدي ناظري، ولزومِ بيتي
وكونِ النّفس في الجسد الخبيث[1]

ولكن هذه العزلة لم تكن ميسورة كما شاءها أبو العلاء، فالتفّ حوله الطلاب، واشتغل بالتعليم والتأليف، فما باختياره كان يلقى زواره، فاقتحموا عليه عزلته فشغلوه وشغلوا به على كره منه (أنظر كما ورد عند بنت الشاطيء أبو العلاء).

وقد عاب الناس أبا العلاء على تقشّفه وعزلته، فلم يسكت بل راح يردّ عليه وبصورة خاصة على داعي الدعاة الفاطمي (المؤيّد في الدين أبي عمران هبة بن موسى بن داود الشيرازي). ومما جاء في ردّه عليه: ﴿وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور﴾[2].

﴿من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً﴾[3].

---

(١) السابق: ١/٢٤٩ (النّبيث: الشرير: الخبيث)
(٢) قرآن كريم: سورة آل عمران الآية ١٨٥.
(٣) السابق: سورة الآية ١٧.

وروى عن علي بن أبي طـالب رضي الله عنـه حكـايـة معناها، أنه كان له دقيق شعير في وعاء يختم عليه، فإذا كان صائماً أفطر على شيء من ذلك الدقيق وكان أول ما يطعم، فاطّلع على ذلك بعض أصحابه فقال لجارية له: أما تتّقون الله في هذا الشيخ؟ فقالت: وانصنع به؟ هو الذي يختار ذلك وقد كان عليه السلام يصل إلى غلّة كثيرة، ولكنّه يتصدّق بها ويقتنع أشدّ اقتناع. أنّ غلته تبلغ في السنة خمسين ألف دينـار. . . . ﴿ويؤثـرون عـلى أنفسهـم ولـو كـان بـهـم خصاصه﴾»[1].

فلم يطلب أبو العلاء مالاً أو عطاء لأنّه كان زاهداً متقشفاً، فانصرف عن زخارف الدنيا وزينتها، ورفضها بعد أن رآها سلسلة من الآلام والمشقّات، فتذوّق العزلـة ما أمكن والحرمان ليستشعر باللذة والأمان، وقهر دوافع الجنس بإرادة وعزيمة نادرة، فامتلك ناصية المجد والوقار والكبرياء. انتصر العقل العلائي على الغريزة البشرية، فكبح جماح نفسه، وجاء متفرداً بعطائه الانساني.

---

(١) السابق: سورة الحشر الآية ٩ ﴿ويؤثرون على أنفسهم. . . .﴾.
رسائل أبي العلاء: ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

التجربة الشعرية عند أبي العلاء

انتهى التكوين الروحي والفكري عند أبي العلاء إلى حياة عميقة، تمسّ النفس البشرية والكون، وتنمّ عن تجربة موغلة في التميّز والتفرّد. التجربة العلائية فجُرت أرض الألم المعتمة، ورأت الموت يطارد الانسان - بل الحياة نفسها، (إنها غيمة الموت)، إنها حقائق واقعة لا محال، فماذا يفيد نسيانها أو تجاهلها؟ من هنا بالذات انطلقت تجربة أبي العلاء الشعرية، وجاءت تجربة انسانية، تمسّ الوجود البشري، وليست تجربة صادرة عن عاطفة أو شخصية ذاتية.

يقول أبو العلاء:

فبعداً لهذا الجسم، يا روح، مسلكا
وبعداً لهذي الروح، يا جسمُ، سالكا
تواصلتما، فاستحدث الوصل منكما
عجائب، كانت للرجال مهالكا

تجربة أبي العلاء تتجاوز الحدود الجزئية المباشرة أو المناسبات التي كانت تنطلق منها قصائد الشعراء المألوفين، وليست مجرد تعبير عن مشاعر ذاتية تنشأ لظروف خاصة،

وإنما تجربته الشعرية تجربة مكثّفة، تكشف عن موقفه من الحياة، وعن رؤيته للوجود، ومن ثم فقد صارت التجربة عنده تتناول قضايا مصيرية شمولية تتصّل بقضايا الإنسان حيث كان، إنها تعبير عن موقفه الإنساني العام الذي تمثّله، وعن نفسه التي جعلها موضع خواطره ليجلو صورتها:

ـ نفــرّ من شــرب كــأس، وهي تتبعنــا،
كــأنــنــا، لــمــنــايــاهــا، أحــبّــاء

★★★

ـ فـلا تطلب الـدنيـا، وإنْ كنتَ نـاشئـاً،
فــإنّــنـي عــنـهــا، بــالأخــلّاءِ، أربــأ
ومـــا نـــوب الأيّـــام إلا كـتـــائـبٌ،
تُــبَـتّ ســرايــا، أو جـيــوشٌ تُـعــبّــأ

يقول:

يا ويحنا! إنّا لنفرّ من الموت، وليس لنا ملجأ من الموت ونحن مع ذلك نمضي في الفرار، وهو يلحّ في اقتفاء آثارنا. كأننا الأحبّاء قد شطت بهم نوى بعيدة، والموت عاش ملحّ، يأبى إلّا أن تتصل اسبابه بأسبابنا.

وهو يطلب عدم المزيد من الحياة الدنيا، لأنها دار شقاء وبلاء، ومصائب لا تنفكّ أن تطارد بني البشر بسمومها وويلاتها. . . . إنّ أبا العلاء يحسّ جوهر موضوعه في عمقه،

ويعممّ ما يؤمن به على كافة بني الإنسان. وهذا يرجع إلى قدرته الشعرية الدالة على أنه شاعـر عظيم، يبحث عن الحقيقة شأنه شأن المفكر الفيلسوف.

فأبو العـلاء يمثَل حيـاة الغُربـة، وجميع أوتـار حياتـه ألـم. . . . وطوفان الحزن غرز براثنه في روحه وجرّعه مرارة فقد البصر طفلاً، فبات صـدره لليأس صحـراء، وللعذاب والمعاناة والظنون منزلاً.

وقد جاءت آثاره وخاصة في لزومياته صـدى لحالاتـه النفسية، والتي تتمثل في العزلة والكآبة والشك والتمردّ ـ إنه مبصر بين عميان، وأعمى بين مبصرين.

أبو العلاء عبقري في طريق الفـلاسفة، فقلبـه يطفـح بالمآسي، يرى الشرّ ينهش الخير كما ينهش البشر لحوم بعضهم، يرى الموت ينهش الجميع، ودورات الزمن تزيد السوء ضراوة، فما الجواب؟ وما الخلاص الإنساني؟. . . إنّه العدم.

والأرضُ لـيس بـمـرُجّـوٍ طـهـارتُـهـا،
إلاّ إذا زالَ عـن آفـاقـهـا الأنَس(١)

إنها تجربة علائية أخذت حجم الكون، وهزّة وزلزال داخلي كسّر ألواح الزجاج في نفسه دفعة واحدة. . . .

---

(١) اللزوميات: ٢/٢١ دار صادر بيروت ١٩٦٠ م.

ومن نثارات الزجاج التي خلّفها الدهر، على أرض حواسه، صرخ أبو العلاء بصوت جديد، فتحولت الكلمة عنده إلى فرس رفض سرجه، وطائر ابتعد عن سربه، وانطلق في الأفق البعيد، فجاءت أبجديته سمفونية لها ألوف المفاتيح والأبعاد. . . .

- تحطّمنا الأيام حتى كأنّنا
زجاج ولكن لا يعاد له سبك[1]

★★★

- دين وكفر وأنباء تقال وفر
قان ينصّ وتوراة وانجيل
في كل جيل أباطيل يدان بها
فهل تفرّد يوماً بالهدى جيل[2]

★★★

- شرّ أشجار علمت بها
شجرات أثمرت ناساً[3]

★★★

- كأنّ منجم الأقوام أعمى
لديه الصّحفُ يقرؤها بلمسِ

---

(١) مرآة الزمان: ص ١٤٧ - ابن الجوزي.

(٢) السابق: ١٤٩.

(٣) اللزوميات: ٢/٣٣.

لقـد طـال العنـاءُ، فكم يُعـانـي
سـطوراً عَـادَ كـاتـبُـهـا بـطمْسِ
دعـا مـوسى فـزالَ، وقـام عيسى،
وجـاء مـحـمّـد بـصـلاة خـمسِ[1]

وهكذا أخذ أبو العلاء يئنّ متوجّعاً تحت مورفين الأحلام والرغبات، فالشرّ، والباطل، والبؤس، والظلم سيرة الحياة الدنيا، فلم يعد يحنّ إلى أنس وجسد، لا يطرب إلى مغنىً، ولا يدمع إلى باكٍ، يرى زوال اللذة، وفناء الأمل، كلّ شيء يتساوى لديه عند عتبة الفناء.

انطلقت تجربة أبي العلاء من سجن وحدته الموحشة، ومن قمع هوى غرائزه، ومن الرهبة في أذى الناس إلى مصائب الحياة البشرية.... حتى لتمرّ الدنيا عنده سوداء قاتمة كسواد ليله القاتم..

وصراع الرجل كان صراعاً شرساً... فقد كانت حياته خلواً من الاشباع الجنسي، وزهداً في الرغبات النفسية، وروحاً شارداً في عـالم الاغتراب... إلى أن تجسـدّت كلمته، وتغلّب عليها في ميدان التعبير الفنّي.

فمن عوامل إبداعه الفنّي استيعابه لقضايا عصره وفكره،

(١) السابق: ٢/٥٥.

والمامه إلماماً واسعاً بما سبقه من ثورات ثقافية، وإجتماعية، وتطلعات إنسانية مثلى.

ومن الملاحظ أنَّ أبا العلاء قد استوعب الثورة الشعرية الأولى في الأدب العربي التي امتّدت ما بين أبي نواس وأبي تمام، وتجدّد شبابها في أبي الطيّب المتنبي، والذي كان شاعرنا شديد الاعجاب به، حتى ظهر تأثره به واضحاً وخاصة في:

«خفّف الوطء ما أظنّ أديم الأرض إلاّ من هذه الأجساد»

فكأنها مأخوذة من قول المتنبي:

ويدفن بعضنا بعضاً ويمشي
أواخرنا على هام الأوالي

وهكذا أتيح لأبي العلاء أن يصوغ الآيات الفنية الخالدة والتي لم تفقد روعتها رغم طيّ الدهور، بل ازدادت جمالاً واتسعت آفاقاً، وأصبحت أوسع فهما وأنفذ بصراً، مع اتساع الآفاق الإنسانية.

فالرؤيا الشعرية عنده اختلجت في روحه ألماً، وتحوّلت بقدرته الفنية إلى خصوصية في تجربة شعرية مميّزة ـ تدفقت فيها روح الأديب وحريته، وبعثت في نفوسنا هزة عاطفية، وأثراً نتذوق به إحساسه، وانفعاله، وطموحه في مادة حيّة نابضة مؤثرة على الدوام لا تفقد قيمتها مطلقاً.

ب ـ وقد احتل التواؤم ما بين الصور الشعرية الجزئية عند شاعرنا وبين نفسيته وتجربته الذاتية، بحيث جاء الإخلاص والصدق الفني عنده مجسّداً في عاطفة عالية تتجسد فيها الصور، والتي تُعتبر معياراً للعبقرية الأصلية، بما فيها من ترابط وخيال فني وأدوات ابداع ناضجة.

رسالة الغفران:

هي رسالة، تقع في ثلاثماية صفحة، وما يناهز الواحدة والستين ألفاً من الكلمات، كتبها أبو العلاء المعرّي سنة ٤٢٤ هـ (القرن الحادي عشر الميلادي) يردّ بها على رسالة رجل يودّ الشهرة، اسمه: علي بن منصور القارح الحلبي. الرسالة كثيرة الاستطراد، ويعود السبب في ذلك إلى سعة اطلّاع المعرّي وغزير ثقافته وإلمامه بشتّى معارف سابقيه.

وقد أحيا أبو العلاء في رسالته ألفاظاً كثيرة كانت مواتاً، وجاء بالنادر من اللغة والغريب والشاذ من العبارات، كما يظهر جلياً علم الشاعر بالشعر وروايته، ونقده، وبالأماكن، والجماعات، وبالتاريخ، والقرآن الكريم وتفسيره، وقد اعتمد المعرّي على العقل، وعلى السخرية في كتاباته - السخرية من الجماعة، ومن الفرد، والإنسان.

رسالة الغفران روعة من روعات الخيال المحلّق، خرجت عن إطارها العربي إلى الفلك العالمي، فانسابت الحكاية، وفاض بحر تجربة الرجل، فالتمع الشك، فعرجت بين الجنة والنار؛ تعتمد على خيال المعرّي وعلى الصور التي

أخذها من القرآن والأحاديث النبوية التي تتحدث عن العالم الآخر.

رسالة الغفران، رسالة إلى العالم الآخر، عالم الجنّة والنار. . . .

رسالة ابداء رأي المعرّي في بعض الادباء والآراء أمثال: المتنبي، والحلاج وابن الرومي، وزهير بن أبي سلمى، وعلى التقليد والتناسخ. . . .

وقد اتصلت رسالة الغفران اتصالاً وثيقاً في شعر المعريّ وخاصة في لـزومياتـه بحيث جاء رأي الشـاعر وعـطاءه الفني متلازماً مع نثره وشعره كتوأمين لا ينفصلان في معترك الحيـاة والآخرة والناس.

فمما جاء عنه أنه ذكر: «فنطْقُ اللسانِ لا ينبىء عن اعتقاد الإنسان، لأن العالم مجبول على الكذب والنّفاق، ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تديُّناً، وإنّما يجعلُ ذلك تزيُّناً، يريد أن يصل به إلى ثناء، أو غرض من أغراض الخالبة أمّ الفناء، ولعلّه قد ذهب جماعةٌ هم في الظاهر متعبّدون، وفيما بَطَنَ مُلحدون. . . . . .

ولم يزلِ الإلحادُ في بني آدم على ممرّ الدّهور، حتى إنَّ أصحـاب السِّيـرِ يـزعمـون أن آم ﷺ، بُعِثَ إلى أولاده

فأنذرهم بالآخرة، وخوّفهم من العذاب، فكذّبوه وردّوا قوله. ثم على ذلك المنهاج إلى اليوم.

وبعض العلماء يقولُ إنّ سادات قريشٍ كانوا زنادقة. وما أجدَرهم بذلك! وقال شاعرُهم يرثي قتلى بدْرٍ، وتروى لشدّاد بن الأسود الليثي:

الــمّــت بــالــتــحــيــةَ أمُّ بــكــرِ
فــحــيّــوا أمّ بــكْــرٍ بــالــسـلام
الا مَــنْ مُــبــلغُ الــرّحــمــن عــنــي
بــأنّــي تــاركٌ شــهــر الــصّــيــام
أيــوعــدُنــا ابــن كبْــشــةَ أن سنحــيــا؟
وكــيــف حــيــاة أصــداءٍ وهــامِ[1]

وهذا ما يظهر جلياً في لزومياته حيث يذكر:

ـ والأرضُ لـيس بـمـرجـوٍ طـهـارتـهـا
حـتـى إذا زال عــن وجــهــهــا الأنس

★★★

ـ والأرض لــلطوفــان مــشــتــاقــة
لــعــلهــا مــن درنٍ تُــغــســل

وعن التفليد يذكر في رسالته الغفرانية:

يلقنُ الطفل الناشىء ما سمعه من الأكابر، فيلبث معه في

(١) ابن كبشة (يعني النبي محمد ﷺ). هام: طيور وهمية.

الدهر الغابر، والذين يسكنون في الصوامع، والمتعبّدون في الجوامع، يأخذون ما هم عليه كنقل الخبر عن المُخبِّر، لا يميّزون الصدق من الكذب لدى المُعبّر. فلو أن بعضهم ألفى الأسرة من المجوس لخرج مجوسيّاً، أو من الصابئة لأصبح لهمقريناً سياً. وإذا المجتهد نكب عن التقليد، فما يظفر بغير التبليد. وإذا المعقول جُعل هادياً، نقع بريّه صادياً. ولكن أين من يصبر على أحكام العقل، ويصقل فهمه أبلغ صقل؟ هيهات! عُدم ذلك في من تطلع عليه الشمس، ومن ضمنه في الرمم رمس، إلاّ أن يشِذّ رجلٌ في الأمم، يُخصُّ من فضلٍ بعمم.

وهذا يظهر أيضاً في لزومياته إذ يقول:

- وينشأُ ناشىءُ الفتيان منا
على ما كان عوده أبوه
- وما دان الفتى بحجىً، ولكن
يعلمه التدينَ أقربوه

★★★

- عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا
وأورثوا الدين تقليداً كما وجدوا
فما يراعون ما قالوا وما سمعوا
ولا يبالون، من غيّ، لمن سجدوا

وأهم مصادر رسالة الغفران هي:

١ ـ القرآن الكريم، (أخبار الجنة والنار ـ حكاية الجن في سورة الكهف).

٢ ـ الاسراء والمعراج النبويان.

٣ ـ أساطير العرب القديمة (أحاديث الشعراء وشياطينهم ـ والكواكب ـ والأمثال السائرة).

٤ ـ أحاديث الجنة والنار من الأخبار الحديثية وأوصافهما.

٥ ـ سوق القصّاص وأخبارهم (الجساسة ـ جبريل الخ).

٦ ـ القصة الاجنبية: (كليلة ودمنة ـ اسمار الجهشياري ـ عقيدة بشار وسليمان الأعمى ـ قصة سلامان وأبسال والتي ترجمها حنين بن إسحاق).

٧ ـ مؤلفات الجاحظ (الساخرة والتي مدته بعنصر السخرية اللاذعة).

سقط الزند:

وقال أبو العلاء المعري في سقط الزند راثياً أبا حمزة الفقيه الحنفي:

غيـر مُجـدٍ في مِلّتي واعتـقـادي
نـوح بـاكٍ، ولا تـرنُّـم شـادي
وشـبـيـه صـوت الـنّـعـيّ إذا قيـ
ـس بصـوت البشيـر في كـل نـادي
ابـكـت تـلكـم الـحـمـامـة أم غـنـ
ـت على فـرع غـصـنـهـا الـمـيـاد
صـاح.. هـذي قبـورنـا تمـلأ الـرّحـ
ـبَ.. فـأين القبـورُ من عهـد عـاد؟
خـفّف الـوطء، مـا أظـن أديـم الـ
أرض إلاّ مـن هـذه الأجـسـاد
وقَبِـيحٌ بـنـا وان قـدُمَ الـعـهـ
ـدُ هـوانُ الآبـاء والأجـداد
سـرْ إنِ اسـطعت في الـهـواء رويـداً
لا اخـتـيـالاً عـلى رفـات الـعـبـاد

ربَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً
ضاحكٍ من تزاحم الأضداد
ودفينٍ على بقايا دفين
في طويل الأزمان والآباد
فاسألِ الفرقدين عمّن أحسّا
من قبيل وانسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهار
وأنارا لمدلج في سواد
تعبٌ كلّها الحياة فما أعـ
جبُ إلا من راغب في ازدياد
إن حزناً في ساعة الفَوْت أضعا
ف سرور في ساعة الميلاد

أ ـ فالموت عند أبي العلاء ما هو إلاّ كوحش كاسر، متربّص بالإنسان، وإذا بالرثاء الفردي الذي رثاه المعري لصديقه، ما هو إلا رثاء للإنسان وللبشرية عامة.

فالقصيدة تنمّ عن موقف فكري مبكرّ عند أبي العلاء وما سيؤول إليه فكره في شيخوخته، هذا الموقف من الكون والذي يتعامل معه الشاعر من خلال حقيقته النفسية.

فجاء رثاؤه لصديقه رثاءً للإنسانية، يتجاوز به الجزئي

المحدود إلى الكلّي اللامتناهي، ويبدأ بافرادية المعاناة ليشمل المعاناة الكبرى للكون. وأبو العلاء يرفض الحياة لأنها في حقيقتها صفر، فيبدأ برصد اللاجدوى في كل الأشياء، وبإيراد المتناقضات (غير مجد ـ نوح باك ترنم شادي) حتى تساوى لديه المبشّر بمولود أو النّعيّ ـ تساوى النّعيّ والبشير والأحزان والمباهج، فصوت الحمامة قد يكون مبكياً عند قوم، وعند آخرين مبهجاً. . . .

وإذ كانت القبور الحديثة عبر العصور الأخيرة من عمر الزمن تملأ الآفاق، فأين إذن قبور البشر عبر تلك العصور السحيقة، حتى من المسلّم به بأن ظهر الأرض الذي تطؤه الأقدام إن هو في الحقيقة إلاّ من رفات الأباء والأجداد ـ فالنّاس ملزمون خلقياً أن يمشوا بتمهّل، بل بالتّحليق إذا أمكن، حتى لا يطأوا بأقدامهم رماد أجساد الأباء والأجداد.

وأبو العلاء يسخر من بني البشر بقدرته الفنيّة الفائقة، ويرثي الإنسان مؤكداً تناقض حياته وعبثيتها. فاللحد يضحك ساخراً من رفات الصالحين والطالحين، ومن الملوك والصعاليك بداخله دون أي تمييز بين مقامات الدنيا الغرورة.

ويُشهد أبو العلاء الفرقدين على ما استقرّ عليه مصير البشر من تعاسة. فلطالما شهد الكوكبان اندثار عظماء وشعوب

وأوطان وما زال الإنسان يرفد الحياة بالبقاء والاستمرار رغم الأحزان والكوارث والآلام.

على أنّ الحدث (الموت) جاء مناسبة تفجّر فيها احساس الشاعر، فجاءت الرؤيا عنده خارقة وعجيبة جعلتنا نـرى الأرض تراباً من أمواتنا وأجسادنا، كما استطاع بقوة خياله أن يجعلنا نسير الخطى على أجساد آبائنا وأجدادنا. فهذه الرؤيا الشعرية حوّلت اللغة، والفكـر، والموسيقى، والصـورة، والعاطفة، إلى وحدة متكاملة وعملاً فنياً رخيصاً تتّضح فيه قدرة الشاعر على الخلق والإبداع الفني، يتجاوز حدود الزمن، ونسمع صداه يأتي من المستقبل، وهذا يرجع إلى مقدرة الشاعر على الخلق، والموهبة من إطلالة شبابه على الحياة، بحيث رفض سربه، وانطلق في الأفق البعيد.

عبثية أبي العلاء المعرّي

لم نلحظ من خلال دراستنا لأبي العلاء يقيناً ثابتاً في غير وجود الله سبحانه وتعالى.

أما في قضية الحياة، والإنسان، والموت، فإنّ الرجل قد انتهى إلى موقف سلبي رافض لقضيتي الحياة والإنسان.

أما الموت فيبقى عنده الحقيقة الوحيدة المؤكّدة المملوءة بالمآسي والمعاناة.

ويبقى الموت على الرغم من بشاعته وكراهته المأمل المرتجى عند أبي العلاء، لأنه المخلّص من معاناة وشرور الحياة ذاتها.

فلقد انتابت أبا العلاء صدمة هزّت كيانه، فأدرك أن الحياة لا معنى لها، وقد استغرق في إحساسه هذا حيث شعر بغربته عن العالم. فانتزع نفسه من ماضي البشر وحاضرهم، وانسلخ عن كل ما هو معروف ومتداول ومسلم به، فاستكان إلى بداية خطيرة تقوم على الشك في التراث وفي الكون وفي كل ما يدور حوله من أعمال، وكذلك التقاليد والعقائد، إلى

أن انتهى به المطاف في نزعة عبثية تنكر العالم،وتوصله إلى العدم، وإلى الاضطراب في صفاء السعادة.

وكم بلغ ويبلغ موقف الانسان من السوء درجة يستحيل معها دوام الحال على ما هي عليه، فقد اشتدت الفوضى بالعالم وازدادت، ومات حفل البراءة ويموت غريقاً في خضم الأمواج من الدماء الداكنة.

وكم تعصف بالمرء عواصف الشك والقلق والضياع واليأس، كما عصفت بأبي العلاء؛ فالحقيقة في هذا العالم هي الفوضى، والخداع، وأنّ عالمنا مملوء بالأباطيل.

أو ليس رفض المعري للحياة رفضاً لقساوة وألم الزمن، إنّه الثورة على الفوضى والفساد والشر المتغلغل في أعماق هذا الكون منذ كان وأصبح الانسان، فدعا أبو العلاء لاستئصال المرض بالعدم، بعد أن استحال استئصاله بالدعوات:

ـ أهكذا كان أهل الأرض قبلكُمُ
أم غيّروا بسجايا منهُمُ فُسُد

★★★

ـ فلا تأمل، من الدنيا، صلاحاً،
فذاك هو الذي لا يستطاع

ـ املّني الدّهر بأحداثه
فاشتقت، في بطن الثرى منزلا

(اللزوميات ج ١ ـ ٢)

إن أبا العلاء ينظر من وراء الغيب، فيكلّمنا عن الفتن والاضطراب، عن جزع النفوس والأعراض، فالعصمة ندرت، والفساد شاع، وكثر التهافت على اللذات ولم تتماسك الحضارات، وتمتلك المناعة التي تعصم النفوس والأخلاق، وتحيي الشرائع للدين الحنيف والآداب الإنسانية.

فجاء الشاعر يبحث عن أصول الأشياء، ويحظى بقوة الامتناع، ويسكر بخمر (الأنفة)، ويعرض عن الدنيا، فيغرق في شكوكه وفي بطلان الحياة ومشكلات الوجود.

إنّ الرجل قد رفض هذا الوجود رفضاً عقلياً وإرادياً صريحاً، حتى جاء زهده في أقصى درجات مواجهة النفس وكشف خباياها، إنّه يحوم حول المتع ملهوفاً لهفة الصادي إلى سلسل ماء عذب، فلا تبترد شفتاه بقطراته المتاحة له، وتلك هي الإرادة الصلبة التي قضت برفض الوجود، ومن ثم ايثار العدم عليه، فيقول:

لُبْتُ، حـول الـمـاء، من ظـمـإ،
إنّ غـربـي مـا لـه مَرسُ[1]
مـهـجَـتـي ضـدٌّ يـحـاربُـنـي،
أنـا مـنـي كـيـفَ أحـتـرس
إنّـمـا دنـيـاكَ غـانـيـةٌ،
لـم يُـهـنّـيء، زوجـهـا، الـعُـرُس
فـالـقـهـا بـالـزّهـد، مـدّرعـاً،
فـي يـديـك الـسّـيـف والـتّـرس

(اللزوميات ٢/١٧)

وأبو العلاء أعلن معركة على الحياة لا هوادة فيها، وأخذ يقذفها بقذفات شعواء ستظل تتجاوب بأصدائها الأيام، إنه لا يشكو عصراً ليمدح آخر، والناس كلهم أشرار، فلا سبيل للحرص على النسل في حياة هي (جناية) عنده جناها الآباء القساة على أبنائهم. فمن هذه المنطلقات كان زهد المعري « فرّداً، وكانت، إلى جانب هذا الزهد، تعشعش الرهبة من الموت في خلجاته، حتى يركن إلى إيمانه بالله، وقراره الخلاص بالموت. . . .

---

(١) لبت: طفت. غربي: دلوي العظيمة.

البعد الوجودي لزهد أبي العلاء:

في كل عصر من عصور التاريخ كان يصحب تيار المجون تيار آخر هو الزهد، ففي الجاهلية تتحدث الشواهد عن المصير الإنساني، وما يقتضيه من ضرورة أن يتأمل الإنسان في الحياة ويوجه سلوكه من منظوره.

فعدي بن زيد العبادي، يقول:

أرواح مودع أم بكور
أنت فانظر لأي أمر تصير
أيها الشامت المعبّر بالدهر
أأنت المبرّأ الموفور؟
أم لديك العهد الوثيق من
الأيام؟ بل أنت جاهل مغرور

فتيار الزهد كان موغلاً في القدم، يرجع للخوف من المصير الإنساني، من الموت، دافعاً بعض الناس للانصراف عن مغريات ومفاتن الحياة. إنه رد فعل الاغراق في المجون، والثراء، والاسراف، والانغماس في ملذات الدنيا، والانزواء عن صخب الحياة. وفي شعر الزهد والزهّاد

لا يخلو الحديث عن الموت والتذكير به، لتأكيد أنّ الحياة ليست بدار بقاء، وانها لا تستحق الانغماس فيها، فالانسان يقترب كل يوم خطوة من النهاية، من الفناء.

ويبقى الكلام عن الزهد وترجمة هذه الدعوة موضع شك وريب، بيد أنّ الكثيرين قد تطرقوا بأفكارهم كدعاة للزهد، وليسوا بزهاد حقيقيين، فأبو العلاء الذي ترجم فكره عملاً، ودعوته ممارسة حقيقية، قد ندر وجوده في التاريخ العربي الإسلامي؛ حيث نرى أبا العتاهية لم يقل شراهة إلى المال من أبناء عصره، ولم يترجم عملية أقواله فعلاً بقدر ما رددها في أشعاره، فيقول:

- تزاهدت في الدنيا وإني لراغب
أرى رغبتي ممزوجة بزهادتي
وعودت نفسي عادة فلزمتها
أراه عظيماً أن أفارق عادتي

وأبو العلاء لم يكن زاهداً بالمعنى الشائع للزهد أيام عصره، فلم يدّع أو يقبل أن يكون زاهداً على نمط أسلافه الشعراء، حيث جاء زهده كدلالة نفسية سلوكية نابعة عن فكر وشعور امتلكاه، فجنّح في عالم العبث والفساد، ارتأى الخلاص منه في العدم المطلق. وليس اضطرارياً في عجزه عن تحقيق الطموحات الدنيوية، أو في صحوة ضمير أو بتأثير

البيئة الاجتماعية. ومن الثابت أن الرجل كان له من روح الفنّان المبدع ومن حمل الآمال الصعاب في عالم مزدهر يقيم الحق والعدل والخير. عالم مبرّأ من الفوضى والاضطراب، قد أيقن الشاعر عجز الإنسان عن السير في مثل هذا العالم، فنادى بالعدم لاستئصال الشرّ من أرض البلاء، فيقول:

- وإنّ الغنى والفقرَ، في مذهب النّهى،
لسيّـان، بـل أعفى من الثـروة العُـدْم

★★★

- وكـيف تـرجى السّعـود فـي زمـنٍ،
يـسـاره راجـع إلـى الـعـدم

★★★

- خيـر لأدم والخـلقِ الـذي خـرجـوا
من ظهـره، أن يكـونـوا قبـلُ مـا خُلقـوا

وعلى هذا الاساس من إيمان الرجل، قررّ عدم ارتكاب جريمة آدم في النسل، وترك بنيه في مطلق العدم ونعيمه، فيقول:

هـذا جـنـاه أبـي عـلـ
يّ، ومـا جـنـيـت عـلى أحـد

فالأمر عند المعرّي لم يكن مجرّد قلق نفسي، أو تشاؤم سطحي ينتابه في أوقات مختلفة متفاوتة، وإنما هو موقف وجودي تكامل عبر شعور مدرك وغامر بعبثية الكون، وفقدان

الهوية والمنطق في الحياة والإنسان جميعاً.

ومن هذا المنطلق الشعوري والفكري رفض المعـرّي الوجود ـ سلوكاً واعتقاداً ـ فانقطع عن الزواج، واقتصر طعامه على العدس والتين، وخشن الفراش والثياب وبارد الماء صيفاً وشتاء، إلى الامتناع عن وسائل الرفاهية، يقول القفطي فيه:

«ولم يكن من ذوي الأموال في الدنيا، وإنّما خلّف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه. وكانت له نفس تشرف عن تحمّل المنن، فمشى حاله على قدر الموجود. فاقتضى ذاك خشن الملبوس والمأكل، والزّهد في ملاذ الدنيا، وكان الذي يحصل له في السنة مقدار ثلاثين ديناراً، قدّر منها لمن يخدمه النّصف، وأبقى النّصف الآخر لمؤونته. فكان أكله العدس إذا أكل مطبوخاً، وحلاوته التين، ولباسه خشن الثياب من القطن. وفرشه من لبّاد في الشتاء. (راجع القفطي في انباه الرواة على أنباء النحاة).

وقد جاء كره المعرّي للبشر واعتقاده بفساد طبيعتهم عاملاً هاماً وأساسياً في زهده، وتركه جميع ملذات الحياة الجسدية والنفسية، إلى أن حبس نفسه منذ السنة ٤٠٠هـ في بيته بالمعرّة لا يغادره، ولم يأكل شيئاً من الحيوان ولا شيئاً من انتاج هذا الحيوان، بعد أن تزهّد: «فلا اللحم ولا اللبن ولا

البيض ولا العسل ولا السمك، ولم يمل إلى نحو من أمور الدنيا قط، فلا أراد أن يجمع مالاً ولا أن ينال جاهاً ولا مجداً ولا ملكاً، فاسمعه يقول:

- من مذهبي ألّا أشدّ بفضّة
قدمي، ولا أُصغي لشرب مُعَوَّج[1]
لكن أقضّي مدّتي بتقّنع
يغني، وأفرح باليسير[2] الأروج
هذا، ولست أودّ أني قائم
بالملك، في ثوبي أغرّ متوّج

ويقول أيضاً:

- طهارة مثلي في التباعد عنكم
وقربكم يجني همومي وأدناسي
- عداوةُ الحمقِ أعفى من صداقتهم
فابعد عن الناس تأمن شِرَّةَ الناس[3]

★★★

- وزهّدني في الخلق معرفتي بهم،
وعلمي بأنّ العالمين هَباء

ويردّد أكثر من مرة قوله:

- سباك الله يا دنيا عروساً،
فكم أوقدت لي شمعاً بشمع

---

(١) قدمي: أناء. (٢) اليسير: المهيأ. (٣) أعفى: أفضل.

ولم أشتَغِلْ منكِ فداء نفسي
بشيء، فاعجبي لرقوء دَمعي[1]
بفقد غرائزي: شمّي، وذوقي،
ولمسي تابعاً بصري وسمعي
★★★
- الدين هجر الفتى اللّذات عن يُسُرٍ،
في صحّة واقتدارٍ منه ما عمرا
★★★
- وافضل من عيش الغنى عيش فاقةٍ
ومن زيّ ملكٍ رائقٍ زيّ راهب
★★★
- فلا تأكلنْ ما أخرج الماءُ، ظالماً
ولا تبغِ قوتاً من غريض الذّبائح[2]
ولا تفجعنّ الطّير، وهي غوافل،
بما وضعت، فالظّلم شرُّ القبائح
ودع ضرب النحل، الذي بكرت له،
كواسب من أزهار نبتٍ فوائح[3]

(١) رقوء: انقطاع.
(٢) غريض: الطري من اللحم.
(٣) ضرب النحل: عسلها.

فقد صام أبو العلاء رمضان، لا بل كان يقضي الكثير من أيامه صائماً أو كالصائم، أما المعاصي فلم يأت بها الرجل، ولم يقرب الخمرة، ولم يضرّ أحداً في حياته. وكان يحسن إلى الناس من ذات يده وذات نفسه.

والذي لا شك فيه هو أنّ أبا العلاء المعري عاش واقعه الشعوري والفكري والنفسي معاناة وسلوكاً وإبداعاً، فبملء اختياره الحرّ، رفض العالم رفضاً صريحاً، والتزم بأن يمارس رفضه العقلي لهذا العالم، سلوكاً، ومواقف عملية، سنوات طويلة، قضاها شاعرنا في صراع شرس ضد نوازع الطبع ودفعات الغريزة، فكان رفضه لنفسه ولجنسه لا يستشعر فيها جميعاً سوى الفساد والخواء والبوار واللا جدوى، ولا يطمئن لغير الموت جسراً يستريح بعده الإنسان في مطلق الفناء.

المعرّي والرهبة من الموت:

الموت نهاية الحياة، (الموت هو الحصار الأليم) الذي عبّر عنه الشاعر ريلكه (الألماني) Rilke بقوله: إن في مشيئتنا دائماً ما ينطق بأننا في طريقنا إلى الرحيل... وربما كان عدم البقاء هو المعنى الأوحد لهذا الوجود.

ويقول طاغور عندما يحين الموت:
سأحب الموت لأني أحب الحياة
يبكي الطفل عندما تسلبه الأم ثديها الأيمن
ويرضى بعد لحظات بثديها الآخر.

وأبو العلاء خاف الموت بدافع الفطرة فعبرّ عن كافه الأكيد بالحياة، ثم ركن إليه بفكره المتأمل، فإذا به المخلص من المعاناة والآلام، فيقول:

فـمـالـي أخـاف طـريـق الـرّدى،
وذلـك خـيـر طـريـق سُـلِك
يُـريـحـك مـن عـيـشـةٍ مـرّةٍ
ومـالٍ أضـيـع، ومـالٍ مـلك

وكما جاء الإنسان الحياة قسراً، يخرج منها مرغماً كارهاً، فيقول:

خرجت إلى ذي الدار كرهاً، ورحلتي
إلى غيرها بالرّغم، والله شاهد

ويذكر أبو العلاء في الفصول والغايات:

«لو أمنت التبعة لجار أن أمسك عن الطعام والشراب حتى أخلص من ضنك الحياة، ولكن أرهب غوائل السبيل».

فأبو العلاء المعري رفض الحياة رفضاً مبدئياً صريحاً، وآمن بالموت مخلصاً منها إلى نعمة العدم المطلق، وجاء زهده التزاماً عملياً يجسّد موقفه الفكري من الوجود بدلاً من الانتحار الفعلي، والذي امتدّ نصف قرن من الزمن. . . خوفاً من غوائل السبيل.

كما جاء حبه الجارف غريزياً لمتاع الدنيا، وهلعه من الموت، يؤججّان الصراع الداخلي للرجل، وإن صعب عليه إخماد اشتعال تلك الغرائز، فكان الموت هو القادر على وضع النهاية لهذا الصراع رغم مهابته، فيقول:

ـ ومن يكن يومَ الوغى باسلاً،
فالموتُ في حملته أبسل

وهكذا عصفت بالرجل عواصف الشك والقلق والضياع واليأس، فلم يجد مبرراً لبقائه، في عالم عديم القيم، أشبه بعالم الاحلام والاوهام منه بعالم الحقيقة. العالم مليء بالاباطيل، والحياة لا معنى لها... فرفض أبو العلاء الوجود فكراً، رفضه لما فيه من قسوة وألم... والشرّ مستبد في هذا الكون ومتغلغل في أعماقه، ومن العسير استئصاله... ومن ثم فهو ألم سرمدي لا ينتهي إلّا بالعدم المطلق، وكان من استغراق شاعرنا في هذا الاحساس الشعور بالغربة عن هذا العالم والانسلاخ عنه، فيقول:

ـ قد فاضت الدنيا بادناسها
على برایاها وأجناسها
وكل حي، فوقها ظالم
وما بها أظلم من ناسها

★★★

ـ يا أمّ دفر، لحاك الله والدةً
فيك الاضاعة والتفريط والسّرف[1]

وهكذا جاء تصور المعري وفزعه من الموت الهائل، بالرغم من أن العدم عنده هو الحل الجذري.

(١) (أم دفر: الدنيا).

ـ يـهـال الـتـراب عـلى مـن ثـوى؛
فـآهٍ مـن الـنـبـإ الـهـائـل

وإذ كان الموت هو الأفضل، فها هو أبو العلاء يمعن في ذكر بشاعته فيقول:

إذا الـحـيّ ألـبس أكـفـانـه
فـقـد فـنـي الـلّبس والـلابس
ويـبـلى الـمـحـيـا، فـلا ضـاحـك،
إذا سُـرّ دهـرً، ولا عـابس
ويـحـبس فـي جـدث ضـيّـق
ولـيس بـمـطلقـه الـحـابس

ويقول أيضاً:

ـ وللمـوت كـأس تكـره النفس شـربهـا
ولا بـدّ يـومـاً أن نكـون لهـا شـربـا

★★★

ـ أشـدّ خـطب يُـتّـقـى
فـراق روحٍ لـجـسـد

ويجسد لنا المعري الرهبة من المَوت في صورة كابية، محمولة على صور أسهمت في تشكيلها كلمات: الحتف، المنون، النعوش، النبل، الأسهم...

قـبـيـح أن يـحـس نـحـيـب بـاك،
إذا حـان الـرّدى، فقـضـيت نـحـبـي

ولـم أرد الـمـنـيّـة بـاخـتـيـاري،
ولـكـن أوشـك الـفـتـيـان سـحـبـي

وعندما يتمثل أبو العلاء سؤال الرمس يرتعد، ويتمنى لو أنه لا يقبر حين يأتيه الموت، وإنما يترك نهباً لكواسر الوحش والطير، . . . فيقول:

إن صـحّ تعـذيب رمس من يحـلّ بـه،
فـجـنّـبـانـي مـلحـوداً ومـضـروحـاً
الـوحش والـطـيـر أولـى أن تـنـازعـنـي
فغـادراني، بـظهـر الأرض، مـطروحـاً

ويذكر في أكثر من موضع خوفه من الموت:
ـ أنـبـأنـا الـلّـب بـلـقـيـا الـرّدى،
فـالـغـوث مـن صـحـة ذاك الـنـبـأ

ولذا نراه يتمنى لو أن عمر الفتى جدّد كلما انتهى كالبدر يعود هلالاً كلما انتهى شهر:

فليـت الفـتى كـالبـدر جـدّد عمـره،
يـعـود هـلالاً كـلمـا فـنـي الـشـهـر

ويذكر أبو العلاء في (ملقى السبيل): «يا ابن آدم: كم تحترس وتحترس، والموت أسد يفترس»:

أيحترس المرء من حتفه
وما حاد عن يومه المحترس
هل الناس إلاّ نظير السوا
م وآجالهم أسد تفترس
يحل الربى، ويحل الوهو
د، ولا بدّ للريح أن يندرس
(ملقى السبيل)

وأبو العلاء لا ينسى أنه من التراب، وإلى التراب سيعود ليختلط به ويصبح بعض هذا التراب، والموت عنده هو الحقيقة الكبرى التي لا تغرب عن وجدانه:

- خفّف الوطء ما أظن أديم الـ
أرض إلا من هذه الأجساد
(سقط الزند)

فأبو العلاء يعيش في تصارع داخلي، تصارع تيارين:

الأول: تمنيه وتحبيذه العقلي للموت إذ هو المخلص إلى العدم من محنة الآلام.

الثاني: هو تيار الغريزة الجارف من ملاقاة الموت بما يلابسه من انتزاع الروح، وفجعة كابية في الجدث، وتحلل مزرٍ يعبث بالجسد.

وأبو العلاء يتمنّى حياةً بلا موت، أو موتاً بلا نشور، وذلك لما في دعوة الحشر من رهبة وخوف يعتري نفسه فاسمعه، يقول:

وأعجب ما تخشاه دعوة هاتفٍ،
أتيتم، فهبّوا يا نيام إلى الحشر
فيا ليتنا عشنا حياةً، بلا ردى،
يد الدّهر، أو متنا مماتاً بلا نشر

(اللزوميات ج ١)

تعطيل التناسل والتزاوج، وطلب المستحيل أو (التصوف):

١ ـ تعطيل التناسل:

ويطالعنا أبو العلاء بتعطيل التناسل، على أنّ البشرية في رأيه هي أساس للشقاء، ولا يمكن أن يزول هذا الشقاء بالاصلاح، وإنما يزول فقط إذا امّحى النسل البشري من الوجود.

ـ هل يغسل الناس عن وجه الثرى مطر،
فما بقوا لم يبارح، وجهه دنس
والأرض ليس بمرجو طهارتها
إلا إذا زال عن آفاقها الأنس
تناسلوا، فنمى شرّ بنسلهم
وكم فجور، إذا شبّانهم عَنسوا

★★★

ـ أرى النّسل ذنباً للفتى لا يقاله
فلا تنكحنّ، الدهر، غير عقيم

فالوجود البشري عند شاعرنا انبثق من طبيعة نخرة فاسدة وساقطة، فنصح بالكفّ عن الزواج، وبالعفّة، وحذّر من عواقب التناسل ومن شرّه، كما نفرّ الناس من بناء الأسرة أشد تنفير وأبعد قبح، فيقول:

- ومن رزق البنين فغير ناءٍ،
بذلك، عن نوائبَ مسقِمات
فمن ثكل يهاب ومن عقوق
وارزاء يجئن مصمّمات
وإن تعط الاناث فأيُّ بؤس
تبيّن في وجوه مقسّمات

وأبو العلاء يعتبر أنّ حوّاء وبناتها هنّ أصل البلاء في الأرض وأصل هذا النسل الذي يعيش في دار الشقاء والعذاب، فيقول:

- فليت حوّاء عقيم غدت،
لا تلد الناس ولا تحبل

فالعالم شر خالص، وليس لهذا الشر من دواء إلاّ أن يتحطم فنستريح الراحة الكبرى، فإن لم يتحطّم هذا العالم من نفسه فلنحطمه نحن بأيدينا هذا التحطيم السلبي، فنعطّل الزواج والتناسل، ولعله من أجل ذلك كان يهاجم المرأة

هجوماً عنيفاً، على أنها النبع الذي يمد البشرية بالاستمرار والتدفق. ولهذا استثنى أمه من النّساء؛ ونعاها من دفقات روحه، وجروحه:

فيقول:

ـ فـإن ينقـطع عنـك الـرجـاء فـإنّـه
سيبقى عليـك الحـزن مـا بقي الـدهـر

أما مهاجمته للنساء الباقيات، فالسبب: إنهنّ غير منصفات وخيرهنّ اللواتي لا يلدن:

ـ خيـر النسـاء اللواتـي لا يلدن لـكم
فـإن ولـدن فخيـر النسـل مـا نـفعـا

★★★

ـ ومـن صفـات الـنّسـاء، قـدمـاً،
ان لـسـن فـي الـودّ مـنـصـفـات

وحقّ لأبي العلاء الذي رفض الحياة رفضاً قاطعاً، يحقّ له أن يرفض متاع الأولاد والزواج، وليس هذا الأمر ضرباً من ضروب التشاؤم بقدر ما هو ضرب من دروب الحياة التي آمن بأن لا جدوى في صلاحها ولا أمل، فعزّ عليه أن يجني على أحْد، وكيف يأتي بـالجنايـة، وأولاده، إذا جاؤوا كـأهل عصْره؟.

ـ لــو أنّ بـنيّ أفـضــل أهــل عصــري
لــمــا آثــرت أن أحــظى بــنــســل
(اللزوميات)

ويصرخ أبو العلاء بصوت إنساني مـدوٍّ ، لا ينازعه شكٌّ في رأيه:

لــو أنـيّ كـلـب، لاعـتـرتـنـي حـمـيّـة
لـجــروي أن يلقـى كـمــا لـقـي الإنس

فالأمر هو فساد الحياة والمجتمع، فلذلك يخاف الإنسال، لأنه يخاف الألام المستمرّة، ولو كانت الحياة عكس ذلك، لكان الأمر عنده يختلف.

وقد سعى أبو العلاء ليبّرر مبتغاه في تعطيل التناسل إلى تقديم مبرّراته منذ آدم وحتى اليوم، ويستشري الفساد في الجنس البشري من أصوله إلى فروعه، وتتأجّج نيران هذه الطبيعة البشرية المستمرة، آكلة متآكلة منذ الأزل وإلى الأبد، فتغشاه الدهشة من بني الانسان الذين فقدوا الحزم، واتسموا بالتلاشي، حيث يتساءل عن بالهم في مواصلة هذا الهراء العابث، فيقول:

ـ كــلّ، عـلى مـكــروهــه، مبـســـل،
وحــازم الأقــوام لا يــنــســل

فسل أبو عالمنا آدم
ونحن من والدنا أغسل

٢ ـ التصوف أو طلب المستحيل:

ـ وزهّدني في الخلق معرفتي بهم،
وعلمي بأنّ العالمين هَباء

فتجربة أبي العلاء تنبع من إرادته وليس من تجربة صوفية عهدناها بالاستعداد الروحي، والتي هي هبة من الله، وليس للعقل والإرادة بهما شأن، ولا قانون لها سوى في سدّة المنتهى... فهو رغم امتلاكه الذوق الرفيع والاحساس المرهف وقدرة الابداع والخلق، فقد حرم الهبة الإلٓهية التي تحقق التجربة الصوفية، فبذل أقصى ما عنده كإنسان وأهدر أكبر قدر ممكن من المطالب الغريزية والشهوات، وقبع في منزله، لا يطلب مالاً أو سلطاناً أو متاعاً، فصدق حين قال:

ـ عشت من أيسر حلّ،
وتشبهت بظلّ

★★★

ـ أنا في الصّرورة، في الحياة مقارنٌ،
ما زلتُ أسبح في البحار الموّج

وصرورة في شيمتين، لأنني،
مذ كنتُ، لم أحجج ولم أتزوّج
من مذهبي أن لا أشدّ بفضّة
قدحي، ولا أُصغي لشرب معوّج[1]
(اللزوميات ج ١ ـ ٢)

فنحن إذا راجعنا تجربة أبي العلاء المعرّي الميتافيزيقية ومعاناته الروحية تعترينا اسئلة حول، تنمية ملكة الرؤيا والكشف الصوفي عن طريق الإرادة، بحيث يتبيّن لنا جلياً أن التجربة العلائية تجعلنا نرفض مثل هذا الزعم بامكانية الكشف الصوفي والرؤيا عن طريق تنمية الإرادة؛ فقد خاض أبو العلاء تلك التجربة بالفعل، وفقاً لفريسة معاناته التي لا يرى الخلاص إلاّ في مطلق العدم. وعلى ذلك فإن التجربة الصوفية منوطة بالاستعداد الروحي أكثر منها في الإرادة... وهذا الاستعداد هبة إلّهية «وحي يوحى» خارج عن الإرادة وعن عقل الإنسان.. وهذا ما يُبيِّنُ لنا مدى حرمان المعرّي من الوصول إلى رحاب الصوفية، فبات غريباً في عالم غريب متفسّخ ـ وظل يتجرّع الألم، ويفضّل الموت على الحياة، في حالة من الصراع والمعاناة ضد النفس وضد الكون.

(١)(الصّرورة: في الإسلام الذي لا يحج ـ في الجاهلية الذي لا يتزوج ـ الشرب: شاربو الخمرة. المعوّج: ضد المستقيم).

خاتمة

وقد انفرد أبو العلاء عن غيره من الشعراء في خصائص واضحة نذكر منها:

١ ـ شخصية جمعت بين الإخلاص والقوّة. الإخلاص في خدمة الحقيقة كما تراءت له. والقوة في مهاجمة أهل الفساد مهما بلغت درجة كل منهم.

٢ ـ نظرته الإصلاحية إلى البيئة التي تحويه، فحاول اصلاحها، ورفع شؤونها.

٣ ـ زهده الحقيقي، وترفعه عن أغراض الدنيا.

٤ ـ تطبيقه الحكمة وإظهار مبادئها على نفسه وحياته.

٥ ـ صرفه الشعر إلى مواضيع متعددة شاملة لمجريات الكون والعمران والأخلاق لم يسبق إليها.

٦ ـ صراحته وجرأته العلنية في مهاجمة ما كان يراه فاسداً.

٧ ـ تفضيله العدم على الحياة، والدعوة إلى قطع التناسل، بعد أن رأى الوجود شقاء في شقاء، فنقم، وأهاب بالناس إلى الفناء.

٨ ـ تملكه ملكة شعرية، وموهبة مبدعة، وذكاء نادراً، ومخيلة واعية. . . . استشعر العبث واللاجدوى والعدم، وجاء متفرّداً عن البشر.

مختارات من سقط الزند:

أ ـ التعريف: سمّى أبو العلاء المعري كتابه سقط الزند، لأنه السقط ما يسقط من النار عند القدح، وذاك على تشبيه شعره بالنار وطبعه بالزند، وقد جعل شعره سقطاً لأنه أول ما سمح به طبعه في ريق شبابه، كما أنّ السقط أول ما يخرج من الزند عند القدح به.

ب ـ قال أبو العلاء عند وصوله بغداد، يرثي الشريف أبا أحمد الموسوي الملقب بالطاهر ويعزي ولديه الرضي أبا الحسن والمرتضى أبا القاسم، وقد صادف عند وصول المعري بغداد موت هذا الشريف، فنختار بعضاً من الأبيات في القصيدة:

الطاهر الآباء

١ ـ أوْدَى فليتَ الحادثاتِ كَفَافِ، مالُ المسيفِ وعنبرُ المُستافِ[١]

٢ ـ الطاهرُ الآباءِ، والأبناءِ، والـ أثوابِ، والآرابِ، والآلافِ[٢]

---

(١) كفاف: معدول، مبني على الكسر، جعله أسماً لكف الأذى. المسيف، من أساف الرجل ذهب ماله. المستاف: الشّام. أي أن المرثي كان مال من ذهب ماله. عنبر: الذي يشّم.

(٢) الآراب: الحاجات، مفردها أرب. الآلاف: مفردها أليف: الصديق الذي يألفك.

٣ - رغتِ الرُّعودُ وتلك هدّة واجبٍ،

جبلٍ هوى في آل عبد مَنافِ[1]

٤ - بخِلَتْ، فلما كان ليلةُ فقدِه،

سمح الغمامُ بدمعه الذّرّافِ

يُقال أنّ الشريفين المرتضى والرضي، قد عرفا أبا العلاء منذ مطلع هذه القصيدة، وقالا: «إنّه المعرّي» فاكرماه، وأعجبا به.

٥ - من شاعرٍ، للبَيْنِ، قال قصيدةً،

يرثي الشريفَ على رَوِّي القافِ[2]

٦ - جَوْنٍ كبنتِ الجونِ يصرُخُ دائماً،

ويَميسُ في بُرْدِ الحزينِ الضّافي[3]

٧ - بُنيتْ على الإيطاءِ، سالمةً منَ الـ

إقواءِ، والإكفاءِ، والإصرافِ[4]

يظهر أن المرثي توفي ليلة رعد. الرّغاء: صوت الإبل، استعارة للرعد. هدّة: الانهداد. الواجب: الهالك. جبلٍ: كسر الجبل على البدلية من واجب. بنو عبد مناف: من قريش.

(٢) على روي القاف: أي على: غاق غاق، حكاية صوت الغراب.

(٣) الجون: الأسود. بنت الجون: نائحة جاهلية. يميس: يميل متبختراً. الضافي: الواسع.

(٤) الإيطاء والإقواء والإكفاء والإصراف من عيوب القافية. فالإيطاء: تكرار القافية بلفظها ومعناها وأجازوه بعد سبعة أبيات من الشعر. =

٨ ـ إنْ زارَهُ المـوتى كسـاهُم في البِلى
أكـفـانَ أبـلجَ مُـكْـرِمِ الأضيـافِ[١]
٩ ـ واللهِ إنْ يـخـلـع عـليـهـمْ حـلّةً،
يـبـعـثْ إلـيـهِ بمِـثـلِها أضـعـافِ
١٠ ـ نُبـذَتْ مفـاتيـحُ الجنـانِ، وإنمـا
رضـوانُ بـيـن يـديـه لـلإتـحـافِ[٢]
١١ ـ فـارقْتَ دهـرك سـاخـطاً أفعـالَـهُ،
وَهْـوَ الـجـديـرُ بِـقـلّةِ الإنـصـافِ
١٢ ـ ولقيتَ رَبّـكَ فـاسـتـردَّ لـك الهـدى
مـا نـالـتِ الأيـامُ بـالإتـلافِ
١٣ ـ وسَـقـاكَ أَمـواهَ الـحـيـاةِ مُـخـلَّداً؛
وكـسـاكَ شـرْخَ شـبـابِـكَ الأفْـوَافِ[٣]

= الإقواء: اختلاف حركة الروي بأن يكون بعضها مرفوعاً وبعضها مجروراً.
الإكفاء: الاختلاف بالحروف كأن يكون الروي حيناً دالاً وحيناً راءً.
الإصراف: اختلاف حركة الروي بين الرفع والنصب يريد أن صوت الغراب واحد لا يختلف.

(١) الأبلج: الواضح وأراد به الكريم، يعطي وأمارات البشر على وجهه.
(٢) نبذت: ألقيت، أي ألقيت إلى المرثي. رضوان: خازن الجنة. وقوله: للاتحاف، أي لإعطائه من تحف الجنة.
(٣) شبابك الأفواف: أي ذو الأفواف، الغض.

١٤ - أبقيت فينا كوكبين، سناهما
في الصّبح والظّلماءِ ليس بخافِ[١]

١٥ - مُتأنّقَينِ وفي المَكارمِ أرْتَعا،
مُتألّقَينِ بسُؤدَدٍ وعَفافِ[٢]

١٦ - قَدَرينِ في الإرْداء بل مَطَرَينِ في الـ
إجْداءِ بل قَمرينِ في الإسدافِ[٣]

١٧ - ساوَى الرَّضيُّ المُرْتَضى وتَقَاسَما
خِطَطَ العُلى بتَناصُفٍ وتَصافِ

١٨ - أنتم ذَوُو النَّسَبِ القصيرِ فطولُكم
بادٍ على الكُبَراءِ والأشرافِ[٤]

(١) الكوكبين: أي الرضي والمرتضى ابني المتوفى.
(٢) أرتعا: أي ارتعا أنفسهما جملاها ترتع في رياض المكارم.
(٣) الارداء: اهلاك الاعداء. الاجداء: العطاء. الإسداف: الإظلام.
(٤) أراد بالنسب القصير إنهم أشراف يكتفون بانتمائهم إلى أبيهم.

- والملاحظ أن هذه العلاقة الحميمة ما بين الشاعر والشريفين الرضي والمرتضى لم تدم طويلاً. ومرجع ذلك أنّ نقيب الشرفاء المرتضى قد أساء في تعامله إلى أبي العلاء، فأمر بسحبه برجله من حضرته عندما قال للمرتضى «ولو لم يكن للمتنبي إلاّ قصيدته، لك يا منازل في القلوب منازل، لكفته فخراً واعتزازاً». ولما سُئل الشريف عن فعلته قال: للمتنبي ما هو أجود منها، ولكنه أراد قوله:

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ
فهي الشهادة لي بأنيّ كامل

وهذا ما يدعونا إلى الانتباه؛ بأنّ علاقة المعرّي بشعر المتنبي تفوق أيّ علاقة وتأثر.

الفخر:

حقّ لأبي العلاء أن يفخر، فحسبه كما مرّ معنا يرجع إلى أشراف العرب، وإلى معادن العلم والفقه والرأي. فمن فخره قصيدته المشهورة، والتي يبلغ أوج اعتزازه بنفسه، بأنّه سيأتي بما لم تستطعه الأوائل:

ألا في سبيل المجد

١ - ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل:
عَفافٌ وإقدامٌ وحزْمٌ ونائلُ(١)
٢ - أعندي، وقد مارستُ كلَّ خفيَّةٍ،
يُصدّقُ واشٍ، أو يُخيّبُ سائل؟
٣ - تُعَدُّ ذُنوبي، عند قومٍ، كثيرةً،
ولا ذنْبَ لي إلا العُلى والفواضِل(٢)
٤ - كأني، إذا طُلْتُ الزمانَ وأهلَهُ،
رَجَعْتُ، وعندي للأنامِ طوائلُ(٣)

(١) أراد أن طريق المجد هو ما جمعته من عفة وشجاعة وحزم وجود.
(٢) الفواضل: الفضائل.
(٣) طلت: غلبت بالطول، القوة. الطوائل: التراث، الواحدة طائلة.

٥ ـ وقد سار ذكري في البلادِ، فمن لهمْ
بإخفاءِ شمسٍ، ضَوْؤها مُتكامل؟
٦ ـ وإني، وإن كنتُ الأخيرَ زمانُهُ،
لآتٍ بما لم تستطِعْهُ الأوائل
٧ ـ وأغدو، ولو أنّ الصباحَ صوارمٌ،
وأسري، ولو أنّ الظلامَ جحافل[١]
٨ ـ وإني جوادٌ لم يحلّ لجامُهُ،
ونضوٌ يمانٍ أغفلتْهُ الصياقل[٢]
٩ ـ ولما رأيتُ الجهلَ، في الناس، فاشياً،
تجاهلتُ، حتى ظُنّ أنّيَ جاهل
١٠ ـ فواعجبا! كم يدّعي الفضلَ ناقصٌ؛
وواأسفا! كم يُظهرُ النّقصَ فاضل
١١ ـ وكيف تنامُ الطيرُ في وُكُناتِها؛
وقد نُصِبتْ للفرْقَدينِ الحبائلُ؟[٣]

---

(١) أي إنه لا ينصرف عن غايته، ولو كان الصباح سيوفاً، والصباح يشبه بالسيف في بياضه وهيبته، وشبّه الظلام بالجيوش العظيمة.

(٢) نضو يمان: أراد به سيفاً يمانياً. الصياقل، الواحد صيقل: الذي يصقل السيف.

(٣) الوكنات: واحدها وكنة: عش الطائر. الحبائل: الشباك، الواحدة حبالة. الفرقدان: نجمان.

١٢ ـ يُنَافِسُ يومي فيَّ أمسي، تشرّفاً؛
وتَحسدُ أسحاري عليّ الأصائل

١٣ ـ وطاولتِ الأرضُ السّماءَ، سفاهةً؛
وفاخَرَتِ الشُّهْبَ الحَصَى والجَنادل[١]

١٤ ـ فيا موتُ زُرْ! إنّ الحياةَ ذميمةٌ؛
ويا نفسُ جِدّي! إنّ دهرَكِ هازِلُ[٢]

١٥ ـ ويؤنِسُني، في قلبِ كلّ مخوفةٍ،
حليفُ سُرىً، لم تصْحُ منه الشمائلُ

١٦ ـ من الزّنج كهلٌ شابَ مفرقُ رأسِهِ،
وأوثِقَ، حتّى نهْضُه مُتثاقِلُ[٣]

١٧ ـ كأنّ الثريّا، والصّباح يروعُها،
أخو سَقْطةٍ، أو ظالعٌ متحامِلُ[٤]

١٨ ـ إذا أنت أُعطِيتَ السعادة لم تُبَلْ،
وانْ نظرتْ، شزْراً إليكَ، القبائلُ[٥]

---

(١) طاولت: باهت، فاخرت. سفاهة: جهل. الجنادل: الحجارة مفردها جندل.

(٢) جدّي: خذي بالجد لا بالهزل ـ فالدهر هازل في تقلبه.

(٣) شبه الليل بالزنجي لسواده ـ ونجومه بالشيب في مفرقه.

(٤) جعل الثريا خائفة من الصبح، تتعثر في سيرها، أو كأنها أعرج يتباطأ في سيره. يريد أن الليل طال، وتباطأت الثريا عن الغروب.

(٥) لم تبل: لم تبال.

الغزل:

الغريب أنّ أبا العلاء يتغزل، فهل حقاً تغزّل أبو العلاء المعري ومدح؛ فالذي يرجع إلى دراسة شعر أبي العلاء وخاصة لزومياته،: وإلى نثره (الفصول والغايات، ورسالة الغفران) يتبيّن للدارس أنّ المعرّي قد مدح وتغزّل ليُظْهر مقدرته الفنية على طرق جميع أبواب الشعر. ناهيك أنّ المعرّي لم يخالج شعوره شك منذ نعومة أظافره على سوء الحياة التي سّماها «أم دفر».

فجاء همّه مقارعة الحياة ولعنها، ونعتها بأبشع الصور، كما شهر سيفه ليقارع الإنسان العاجز الذي رأى فيه الضعف منذ آدم، حتى يومه. وأحسب أنّ المدح والغزل عند الشاعر، كانا في اطلالة شبابه، وإظهار مقدرته الفنية على طرق أبواب الشعر من بحره الواسع.

وها هو في مدينة السلام (بغداد) يشتاق بلده وأحباءه فيجري في عروقه طيف الذكرى، ولواعج الحنين، ويهزه الشوق؛ فيتغزّل، ولكن ليس كالشعراء...

ماء بلادي أنجع

١ ـ مغاني اللّوَى من شخصِكِ اليومَ أطلالُ،
وفي النـومِ مغنىً من خيالِـكِ مِحلالُ[١]

٢ ـ معـانيـكِ شتّى، والـعبـارةُ واحـدٌ،
فـطرفُـكِ مُـغتـالٌ، وزنـدُكِ مُـغتـالُ[٢]

٣ ـ وابغضتُ فيكِ النخلَ، والنخلُ يـانعٌ،
واعجبني مـن حبِّـكِ الـطلحُ والـضّـالُ[٣]

٤ ـ وأهـوى، لجـرّاكِ، السّمـاوةَ والقـطا،
ولـو أنّ صِـنْـفَـيْـهِ وشـاةٌ وعُـذّالُ[٤]

٥ ـ حملْتِ، من الشامِينِ، أطيب جُـرعـةٍ،
وأنـزرهـا، والقـومُ بـالقـفـرِ ضُـلّالُ[٥]

٦ ـ يـلوذُ بـأقـطار الـزّجـاجـة، بعـدمـا
أريقتْ، لِمـا أهـدَيتِ في الكُثـرِ، أمثـالُ[٦]

---

(١) المغاني: المنازل، مفردها مغنى. اللوى: منقطع الرمل. محلال: يحل فيه كثيراً.

(٢) المغتال الأول: المهلك. والثاني: حبل ريّان.

(٣) الطلح والضال: من شجر البادية.

(٤) لجراك: أي من أجلك.

(٥) حملت: أي حمل طيفك ـ الشامان: الشام والجزيرة ـ أراد بأطيب جرعة: ريقها ـ أنزرها: أقلها أي ريق قليل.

(٦) أقطار الزجاجة: نواحيها ـ يقول: يلوذ بنواحي الزجاجة من البلل، بعدما أريقت، أمثال ما أهديت من ريقك في النوم، أي شيء قليل، في كثرة، أي معظمه.

٧ ـ فسقيـاً لكأسٍ من فمٍ مثـلِ خـاتِمٍ
من الـدُّرِّ، لم يَهْمُمْ، بتقبيله، خـال[١]

٨ ـ صحبتِ كَـرانـا، والـرّكـاب سَفـائنٌ،
كـعَـادِكِ فيـنـا، والـركـائـبَ أجـمـال[٢]

٩ ـ عُـمتِ إلـينـا أم فِعـالَ ابـنِ مـريمٍ
فعلتِ، وهـل يُعـطى النبـوّة مكسـال؟[٣]

١٠ ـ كـأنّ الخـزامى جـمعتْ لـكِ حلّةً،
عليك بها، في اللون والطّيبِ، سِرْبـال[٤]

١١ ـ تـحـيّـةَ وُدٍّ، مـا الـفـراتُ ومـاؤه
بـأعـذبَ مـنـهـا، وهـو أزرقُ سَـلْسـال

١٢ ـ فـإن زعمـوا أنّ الهجيـرَ استشفّهـم
إليهـا، فمنهـا في الـمـزايـدِ أسمـال[٥]

---

(١) الخال: المختال: المدل بعظم شأنه.

(٢) كرانا: نومنا ـ عادك: عادتك ـ ومعنى ذلك أنها تزوره في النوم أفي البحر كان أم في البرّ.

(٣) فعال ابن مريم: أي مشيه على الماء.

(٤) الخزامى: خيري البر ـ نور أبيض يضرب إلى الحمرْة زكي الرائحة.

(٥) استشفهم: شوقهم، المزايد، الواحدة مزادة: جلود يضم بعضها إلى بعض ويوضع فيها الماء. أسمال: الواحد سمل: الماء القليل.

١٣ ـ أتعلمُ ذاتُ القُرْطِ والشَّنْفِ أنّني
يُشَنّفُني، بالزّأرِ، أغلبُ رِئبالُ؟[١]

١٤ ـ فيا دارها بالحزْن إنّ مزارَها
قريبٌ، ولكنْ دونَ ذلكَ أهْوالُ

١٥ ـ إذا نحنُ أهللنا بُنْويكِ ساءنا،
فهلّا، بوجهِ المالكيّةِ، إهْلالُ[٢]

١٦ ـ بكتْ، فكأنّ العِقد نادى فريدَهُ:
هَلُمّ لعَقْدِ الحِلْفِ، قُلْبٌ وخَلْخالُ[٣]

---

(١) القُرط: ما يعلّق في اسفل الأذن. والشنف: ما يعلّق في أعلى الأذن. يشنفني بالزأر: يهددني بزئيرة. الرئبال: الأسد.

(٢) أهللنا: نظرنا إلى الهلال. النؤي: الحاجز الذي يعمل حول البيت لئلا يدخله ماء المطر. المالكية: لقب المرأة المتغزل بها.

ـ أو ليس عشيقة أبي العلاء تختلف عن العشيقات الأخريات؟. إنها اعذب من ماء الفرات السلسل العذب؛ ورغم هذا وذاك، تبقى عفيفة رغم قرب بيتها، فمن شاء الدخول، فهناك الأهوال. إنّ أبا العلاء يعطي درساً حتى في الحب والغرام؛ فالإقدام أولى بفتاته. وقد سار بيت المعرّي:

«فيا دارها بالحزن إن مزارها
قريب، ولكن دون ذلك أهوال»

سار هذا البيتُ على لسان بعض الفتيات عندما تغزّل بها أحد الشبّان، فما كان من صاحبنا سوى السكوت، والأنصراف.

(٣) الفريد: اللآلىء. القلب: السوار. يقول: إنها لما بكت من حزنها لفراق حبيبها قطرت دموعها على زندها وقدمها فكأن سوارها وخلخالها ناديا لآلىء العقد لعقد محالفة معها. وقد أشبهت دموعها لآلىء عقدها.

١٧ ـ وهل يحزن الدّمع الغريبُ قدومُهُ
على قدمٍ، كادتْ من اللّينِ تَنْهالُ[١]
١٨ ـ تحلّى النّقا دُرّيْنِ: دمعاً ولؤلؤاً؛
وولّتْ أصيلاً وهْي كالشمس مِعطالُ[٢]
١٩ ـ بأشْنَبَ معطارِ الغريزةِ، مُقسمٍ،
لسائقه، أنّ القسيمةَ مِتفالُ[٣]
٢٠ ـ فلا أخلفَ الدّمعَ، الذي فَاضَ، شأنُها،
دَعاءٌ لها، بل أخلَفَ النّظمُ لآلُ[٤]

---

(١) جعل دمع حبيبته غريباً على ادعاء منه بأنها ليس من عادتها البكاء. تنهال: تنصب، أي لا تكاد تثبت.

(٢) النقا: كثيب الرمل. الأصيل: آخر النهار. المعطال: التي لا حلى عليها. أراد أنها كالشمس غير محتاجة إلى التزين بالحلى.
وهذا ما يؤكد قول المتنبي:
حسنُ الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب
وكأن روح المتنبي تخاطب المعرّي من وراء الغيب في تفكيره، وأدائه الغنيّ.

(٣) الأشنب: الثغر البادر الاسنان العذب. القسيمة: جونة العطار التي يضع فيها عطره. وقوله: معطار الغريزة، أي أن العطر فيها خلقة وغريزة. سائقه: الذي يشمه. المتفال: ضد المعطار.

(٤) شأنها: مجرى دمعها. اللآل: جالب اللؤلؤ. يدعو عليها بأن لا يخلف عليها مجرى دمعها لألىء الدمع الذي أفاضته، أي لا بكت أبداً. ولكن جالب اللؤلؤ أخلف عليها ما نثرته من لؤلؤ دمعها.

الدرعيات:

قال على لسان رجل يصف درعين.

صنت درعي

١ - صنتُ درعيّ، إذْ رمى الدهر صَرْعَيّ
بما يترُكُ الغَنيّ فقيراً[١]

٢ - كالربيعين، خِلتُ أنّ الرّبيعيْـ
ـنِ أعاراهما سَراباً غزيراً[٢]

٣ - كلُّ بيضاء منهما، تمنع الفا
رِسَ أن يجعلَ الفِرْارَ نصيراً

وقال على لسان درع يخاطب سيفاً

ألم يبلغك؟

ألم يبلغكَ فَتْكي بالمواضي،
وسخري بالأسِنّةِ والزُّجاج؟[٣]

---

(١) صرعي: غداتي، وعشيتي.
(٢) الربيعان الأولى: النهران. والثانية: شهر الربيع.
(٣) الاسنة: الواحد سنان: رأس الرمح. الزجاج، الواحد الزج: كعب الرمح.

وأنّي لا يغيّرُ لي قتيراً،
خِضابٌ، كالمدام، بلا مِزاجِ
منعْتُ الشّيبَ من كَتَمِ التراقي،
ولم أمنعْهُ من خِطْرِ العَجاج[1]

(١) الكتم: صبغ أحمر. التراقي، الواحدة ترقوة: أعلى الصدر. الخطر: نبات يختضب به.

مختارات من لزوم ما لا يلزم ~

«اللزوميات» الجزء الأول.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

جاء عن أبي العلاء المعرّي (أحمد بن عبد الله بن سليمان) الضرير رهْن المحبسين، بل رهن ثلاثة سجون (النظر ـ لزوم بيته ـ وكون النفس في الجسم العليل)؛ أنّه قال بقضاءٍ لا يشعر كيف هو:

كان من سوالف الأقضية اني أنشأت أبنية أوراقٍ، توخّيت فيها صدق الكلمة، ونزّهتها عن الكذب والمَيْط (البعد، المغالاة)، ولا أزعمها كالسِّمط المتخذ (الخيط إذا كان منظماً فيه خرزات العقد وإلا فهو السلك)، وأرجو أن لا تُحسب من السَّميط (الآجر المبني بعضه فوق بعض)، فمنها ما هو تمجيد لله الذي شرُف عن التمجيد، ووضع المنن في كلّ جيد، وبعضها تذكير للناسين، وتنبيه للرُّقدة الغافلين، وتحذير من الدنيا الكبرى التي عبثت بالأول، واستُجيبت فيها دعوة جرول (هو الحطيئة)، إذ قال لأمه:

جزاكِ الله شراً من عجوزٍ
ولقاكِ العقوق من البنينا

فهي لا تسمح لهم بالحقوق، وهم يباكرونها بالعقوق، وإنما وصفتُ أشياء من العظة، وأفانينَ على حسب ما تسمح به الغريزة. فإن جاوزت المشترط إلى سواه فإن الذي جاوزتُ إليه قولٌ عرّي من المين. (المين الكذب) وجمعتُ ذلك كلّه في كتاب لقّبته: «لزومِ ما لا يلزم» ومعنى هذا اللقب أن القافية تلزم لها لوازم لا يفتقر إليها حشو البيت، ولها أسماء تعرف، وسأذكر منها شيئاً مخافة أن يقع هذا الكتاب إلى قليل المعرفة بتلك الأسماء. والذي سمّاه المتقدّمون من لوازم القافية، خمسة أحرفٍ وستّ حركات. فالأحرف: الرّويّ، والرّدف، والتأسيس، والوصل، والخروج. فأما الرّويّ: فأثبتُ حروف البيت، وعليه تُبنى المنظومات. وهو يكون من أي حروف المعجم وقع إلا حروفاً تضعفُ ولا تثبتُ، كألف الترنّم، وواوِه، ويائه، وهاء الوقف، وهاءات التأنيث إذا كان ما قبلها متحركاً، والألف التي تلحق علماً للتثنية في مثل ضربا وذهبا، والواو التي تدلّ على الجمع إذا كان مضموماً ما قبلها في مثال ضربوا وقتلوا، وغير ذلك من الحروف، فإن اتفق غير ما ذكرتُ فهو شاذّ مرفوض.

والرّويّ له ثلاث منازل: يكون آخر حرف في الشعر المقيّد ولا ينكسر هذا القياس في رأي المتقدمين. ويكون بينه وبين انقضاء البيت حرف أو حرفان وذلك في الشعر المطلق. والذي بين رويّه وبين انقضاء وزنه حرف واحد فإنما تجيء بعد رويّه الصلة لا غير، وهي تكون أحد أربعة أحرفٍ، وتكون الأحرف: الواو والألف والياء والهاء.

وأما الذي يقع بعد رويّه حرفان فهو ما تحرّك هاء وصله فلزمها الخروج كقوله:

فـي لـيـلةٍ، لا نـرى بـهـا أحـداً،
يـحـكـي علـيـنـا، إلا كـواكـبـهـا

فالباء هي الرّويّ والهاء وصل والألف خروج.

وأما التأسيس: فألف بينها وبين حرف الروي حرف يسمى الدخيل ولا تلزم إعادته كما تلزم إعادة الرويّ. والتأسيس كقول أحدهم:

إلا يـا ديـار الحيّ بـالأخضـر اسلمي،
ولـيس عـلى الأيـام والـدهـر سـالـم

فألف سالمِ تأسيسٌ واللام دخيل والميم رويّ.

والتأسيس له ثلاث منازل: **فالأولى**: أن يكون بينه وبين انقضاء البيت حرفان وذلك في الشعر المقيّد كقوله:

نهنهْ دموعك؛ إنّ مَنْ
يبكي من الحدثان عاجز

والثانية: أن يكون بين التأسيس وبين انقضاء البيت ثلاثة أحرفٍ وذلك في الشعر المطلق الذي لا يلزمه خروج كقوله:

يديرونني عن سالمٍ وأديرهم،
وجلدةُ بين العين والأنف سالمُ

فألف سالم تأسيس واللام دخيل والميم رويّ والواو بعد الميم وصل.

والثالثة: أن يكون بين حرف التأسيس وبين انقضاء البيت أربعة أحرفٍ وذلك في الشعر الذي يلزمه الخروج كقوله:

يوشكُ من فرّ من منيّتهِ،
في بعض غِرّاته يوافقها[1]

وأمّا الرّدف: فألف أو واو أو ياء ساكنتان تكونان قبل الرويّ ولا حاجز بينهن وبينه، فأما الألف فلا يكون ما قبلها إلّا مفتوحاً، وأما الواو والياء فيجوز أن تختلف حركات ما قبلهما وهما في ذلك ردفان.

---

(١) يوافقها: يصادفها.

وللردف ثلاث منازل: إمّا أن يكون بينه وبين انقضاء البيت حرف واحد وذلك في الشعر المقيّد، وكما جاء في قول طرفة بن العبد:

وجـامِـلٍ، خـوّع مـن نـيـبـه، زَجْـرُ الـمعلّى أُصُـلاً والـمُـنـيـح[١]

فالياء في المنيح ردف، وكذلك الواو في قول الراجز:

هـل تعـرف الـدار بـأعلى ذي الفـور قـد درسـتْ غيـر رمـادٍ مـكـفـور[٢]

فالواو في «فور ومكفور» ردف وليس بعدهما من بناء البيت إلّا حرف واحد.....

وأما الوصل: فإذا اختلف فكان مرة واواً ومرة ياءً فذلك الإقواء. وأما هاء الوصل، إذا كانت ساكنة فإنها لا تحتمل أن تغيَّر، وإذا كانت متحركة فقلما يلحقها التغيّر، وزعم أبو عمر الجرمي أنّه لم يسمعه، وإن جاء فهو نحو الاقواء.

---

(١) الجامل: صاحب الجمال. خوع: نقص. النيب مفردها ناب: المسنة في الإبل. الزجر: التفاؤل أو التطير. المعلى: سابع قداح الميسر. المنيح: قدح بلا نصيب. والمعنى أن لعب القمار قد نقص من إبله ولم يجده زجر المعلى ولا المنيح نفعاً.

(٢) الفور: موضع باليمامة. درست: امحت. المكفور: المستور.

وأما الخروج: فتغير، متعلّق بتغير هاء الوصل لأنه لا يوجد إلا وهي متحركة، فإن جاء فهو نحو الاقواء.

وأما الحركات: فمنها الرّسّ، وهي فتحة ما قبل التأسيس، ومن الحركات الاشباع، وهو حركة الحرف الذي بين ألف التأسيس وحرف الرويّ في الشعر المطلق، وذلك الحرف يسمى الدخيل، . . . . .

وفي هذا الكتاب أشياء تجري هذا المجرى وقد بينتها في مواضعها، وقد يمكن أن يلزم القائل حرفين واكثر، . . . وقد قلت في كلام لي قديم: إني رفضت الشعر رفض السقب غرسه، والرأل تريكته، (السقب ولد الناقة: ذكر. الرأل: فرخ النعامة. التريكة: البيضة) والغرض ما استجيز فيه الكذب واستعين على نظامه بالشبهات. فأما الكائن عظةً للسامع، وايقاظاً للمتوسّن وأمراً بالتحرز من الدّنيا الخادعة وأهلها الذين جبلوا على الغشّ والمكر، فهو إن شاء الله مما يلتمس به الثواب.

ويروى عن الأصمعي كلام معناه: أنَّ الشعر باب من أبواب الباطل، فإذا أُريد به غير وجهه ضعف. وقد وجدنا الشعراء توصلوا إلى تحسين المنطق بالكذب وهو من القبائح . . .

وهذا حين أبدأ بترتيب النظم وهو مائة وثلاثة عشر فصلاً، لكلّ حرفٍ أربعة فصول وهي على حسب حالات الرويّ من ضمّ وفتح وكسر وسكون. وأما الألف وحدها، فلها فصل واحد لأنها لا تكون إلا ساكنة، وربما جئت في الفصل بالقطعة الواحدة أو القطعتين ليكون قضاء حق للتّأليف وبالله التوفيق.

مختارات من اللزوميات الجزء الأول:

الآباء والبنون

أولو الفضل، في أوطانهم، غرباء،
تشذّ وتنأى عنهمُ القُرباءُ
فما سبأوا الرّاح الكميتَ للذّةٍ،
ولا كان منهم، للخِراد، سباءُ[١]
وحسبُ الفتى من ذلّة العيش أنه
يروح بأدنى القوت، وهو حباء[٢]
إذا ما خبتْ نارُ الشبيبة ساءني،
ولو نُصّ لي، بين النجوم، خباء[٣]

---

(١) سبأ الخمر: اشتراها. الكميت: الخمرة في لونها سواد وحمرة. الخراد: جمع الخريدة وهي الفتاة العذراء. السباء: السبي.
(٢) الحباء: العطاء.
(٣) نص: رفع.

وقال يذم الدنيا ويشبهها بالمرأة:

الدنيا امرأة

دنـيـاك مـاويـة، لـهـا نـوب
شـتّـى، سـمـاويـة، وأنـبـاء[1]
أفٍ لـهـا، جـلُّ مـا يـفـيـد مـنـهـا
مـن فـاز فيـهـا، الـطعـامُ والـبـاء[2]

ويتبيّن لنا ما استقرّ في نفس الشاعر ورؤيته للوجود، فإذا الموت خير من الحياة.

زاد الآخرة

تـقـواك زاد، فـاعـتـقـد أنّـه
أفـضـل مـا أودعـتـه فـي السّـقـاء[3]
آه، غـداً مـن عـرق نـازلٍ،
ومـهـجـةٍ مـولـعـةٍ بـارتـقـاء[4]
مـوت يـسـيـر، مـعـه رحـمـة
خـيـر مـن الـيُـسـر وطـول الـبـقـاء

(١) ماوية: اسم امرأة شبه الدنيا بها. النوب، مفردها نوبة: المصيبة.
(٢) الباء: الزواج.
(٣) السقاء: وعاء من جلد للماء واللبن.
(٤) غداً من عرق نازل: أي يوم الحساب. ومهجة مولعةٍ بارتقاء: أي النفس التي تحب أن ترقى إلى السماء.

وقـد بـلونـا الـعـيش اطـواره

فمـا وجـدنـا فيـه غـيـر الشقـاء[1]

تـقـدم الـنـاسُ، فـيـا شـوقـنـا

إلـى اتـبـاع الأهـل والأصـدقـاء

مـا أطـيـب الـموتَ لـشـرّابـه

إن صـحّ لـلأمـوات وشـك التقـاء[2]

الدين تقليد

عـاشـوا، كمـا عـاش آبـاءٌ لهم سلفـوا

وأورثـوا الـدّين تقليـداً، كمـا وجـدوا

فمـا يُـراعـون مـا قـالـوا، ومـا سمعـوا؛

ولا يبـالـون، من غيٍّ، لمـن سجـدوا

نكر الأيام

أرى الأيـام تـفـعـلُ كـلّ نُـكـرٍ،

فمـا أنـا، في العجـائب، مستـزيـدُ

أليس قُـريشُكـم قـتـلتْ حُـسيـنـاً،

وصـار، عـلى خـلافـتـكم، يـزيـدُ؟

---

(١) بلونا: جربنا.

(٢) الوشك: السرعة.

ما في البرية جيد

أنا صائم طول الحياةِ، وانما
فِطري الحِمامُ، ويومَ ذاك أعيِّدُ
لونان من ليلٍ وصبحٍ لوّنا
شعري، وأضعفني الزّمان الأيّدُ[1]
والناس كالأشعار ينطق دهرُهم
بهم، فمسطلِقٌ معشرٍ، ومقيَّد
قالوا: فلانٌ جيّدٌ لصديقه،
لا يكذبوا، ما في البريّة جيّد
فأميرهم نال الإمارة بالخنى،
وتقيُّهم، بصلاته، متصيِّد

شرف العقم

كوني الثريا، أو حضار، أو الـ
جوزاءَ، أو كالشمس لا تلدُ[2]
فلتلك أشرفُ من مؤنثةٍ،
نجلتْ، فضاق بنسلها البلد

---

(١) الأيد: القوي.

(٢) حضار، بالبناء على الكسر: اسم نجم.

الصالح نادر الوجود

حوتنا شرور، لاصلاحِ لمثلها،
فإن شذّ منّا صالح، فهو نادر
وما فسدت أخلاقنا باختيارنا،
ولكن بأمرٍ سبّبته المقادر
وفي الأصل غشّ، والفروع توابع؛
وكيف وقاء النّجل والأب غادر!
فقل للغراب الجون، إن كان سامعاً؛
أأنت، على تغيير لونك، قادر؟

الجبرية

ما باختياري ميلادي، ولا هرمي،
ولا حياتي، فهل لي بعدُ تخييرُ؟
ولا إقامة إلّا عن يَدَيْ قدرٍ
ولا مسيرَ إذا لم يقضَ تسيير
زعمتَ أنّك تهديني لواضحةٍ،
كذبتَ، هذا الذي تحكيهِ تحيير
عيّرت أمراً، فهل غيّرت منكرهُ،
أم ليس عندك للنكراءِ تغيير؟

ما هو الدين؟

الــدين هجــر الفتى اللذات عن يســرٍ،
في صحــةٍ واقتــدارٍ منــه مــا عــمــرا
والـحلم صبــر أخي عــزّ لـظالـمــه،
حــتــى يــقــولَ أنــاسٌ ذلَّ أو قُــمِــرا
والغمــر يــأتي غمـــار اللُّجِّ، يحسبهــا
ضحضــاح مــاءٍ، فنلفيــه وقــد غُـمــرا
والـظبي أشجــع من ليثٍ ومن نَـمِـرٍ،
إذا ألـمّ يضــاهي الـليـث والنّـمِــرا[1]
ومـن عـنــاء الـليــالي خــادم ضــغِـنٌ
إن يؤمــر الأمـر يفعــل غيــر مــا أمــرا

---

(١) المّ: نزلت به ملمة.

مختارات من اللزوميات الجزء الثاني :

لا شيء يرد الموت

أما الحسامُ، فما أدناك من أجلٍ،
ولا يُردُّ الحمامَ الدّرع والتُّرسُ
والناس، من صنعة الخلّاق، كلُّهُمُ
كالخط يُقرأ حيناً ثمّ ينلدِرس
أيعلم الليث، لمّا راح مُفترساً،
بأنّهُ، عن قريبٍ، سوف يُفترس؟

الأرض النجسة

هل يغسلُ الناسَ عن وجه الثرى مطرٌ،
فما بقوا لم يبارح، وجهه، دنسُ
والأرضُ ليس بمَرْجُوٍّ طهارتُها،
إلّا إذا زال عن آفاقها الأَنَس

أتسألون جهولا؟

يزورُني القومُ، هذا أرضُهُ يمنٌ،
من البلاد، وهذا دارُه الطّبسُ[1]

(١) الطّبَسُ: كورة بخراسان.

قالوا: سمعنا حديثاً عنك، قلتُ لهم:
لا يُبعدُ اللهُ إلاّ معشراً لبسوا

رجال السياسة

يسوسون الأمورَ بغير عقلٍ،
فينفذ أمرُهم، ويُقالُ: سَاسَهْ
فأفٍّ من الحياةِ، وأفٍّ مني،
ومن زمنٍ رئاستُهُ خسَاسَهْ

تبدل الصورة على المادة

لا أسألُ المرءَ قرضاً من شهادته،
ولا أروحُ على شيبي بمقراضِ
إذا غدوتُ ببطن الأرض مضطجعاً،
فثَمّ أفقِدُ أوصابي وأمراضي
تيمّموا بترابي، علّ فِعلكُمُ،
بعد الهمودِ، يوافيني بأغراضي[1]
وإن جُعلتُ بحكم الله في خزفٍ،
يقضي الطّهورَ، فإنّي شاكرٌ راض

---

(١) تيمموا: من التيمم، وهو أن يمسح المريض وجهه ويديه بالتراب الطاهر للصلاة، ويجوز التيمم لغير المريض، إذا لم يجد هذا الأخير ماءً للوضوء.

جــواهــرٌ ألّــفَـتــهــا قــدرةُ عــجــبٌ،
وزايلتهــا، فـصــارت مثــل أعــراض[1]

حشر الأجساد

لـو صحّ مـا قال رسطــاليسُ، من قِـدمٍ
وهبّ من مــات لم يجمعـهُمُ الـفلكُ[2]
ومـذهبي، في البـرايـا، كـونهم شيعــاً،
كـالثّلج والقـارِ، منـه الجـونُ والحلكُ[3]
مــا اســودَّ حــامٌ لــذنبٍ كــان أحــدثــهُ،
لكن غــريــزةُ لــونٍ خــطّهــا المَلِكُ[4]
إن لم يكنْ، في سمـاءٍ فـوقَنــا، بشرٌ،
فليس في الأرض، أو مــا تحتهــا ملَكُ
كم حـلّ، حيثُ تبنّى الحيُّ، من أممٍ،
ثم انقضــوا، وسبيــلاً واحــداً سلكــوا

(١) الجواهر: الحقائق التي يتألف منها جسم الإنسان، ويقابلها الاعراض، أي الخارجة عن هذه الحقائق، ولكنها تتناوبها وتحل فيها.
قدرة عجب: يعني النفس الإنسانية.
زايلتها: فارقتها، ولعلها زيلتها، فتكون قدرة عجب: القدرة الإلهية.

(٢) يشير إلى قول أرسطو بحشر الاجساد، وعدم قوله بفناء الافلاك وانحلالها.

(٣) الجون: يقصد به هنا الأبيض. الحلك: الأسود.

(٤) المـلك: الله سبحانه وتعالى (كل شيء حسب مشيئته).

إن تسألِ العقلَ، لا يوجدْك من خبرٍ
عن الأوائلِ، إلّا أنّهمْ هلكوا

دين وكفر

دينٌ وكفرٌ؛ وأنباءٌ تقصّ، وفر
قانٌ ينصّ، وتوراةٌ، وإنجيل
في كل جيلٍ أباطيلٌ يدان بها،
فهل تفرّد يوماً بالهدى جيل؟

الله والمكان والزمان

قلتم: لنا خالقٌ حكيم،
قلنا: صدقتم كذا نقولُ
زعمتموه بِلا مكانٍ
ولا زمانٍ، ألا فقولوا
هذا كلام له خبيءٌ،
معناهُ ليست لنا عقول

الأرض للطوفان مستاقة

كلٌّ، على مكروهه، مُبسلٌ،
وحازمُ الأقوام لا يُنسِلُ[1]

---

(١) مبسل: معرض للهلكة والعذاب. ينسل: يلد نسلاً.

فسْلٌ أبو عالمنا آدمٌ،
ونحن من والدنا أفسَل[1]
لو تعلم النَّحل بمشتارها،
لم ترها في جبلٍ تعسِل[2]
والخيرُ محبوب، ولكنَّه
يعجزُ عنه الحيُّ، أو يكسَل
والأرض للطوفان مشتاقة،
لعلّها من درنٍ تُغسل
قد كثر الشرُّ على ظهرها،
واتُّهم المرسل والمُرسَل
وأمقرت أفعال سُكّانِها،
فهم ذئابٌ في الفضا عُسَّلُ[3]
ومن يكنْ يومَ الوغى باسلاً،
فالموتُ، في حملته، أبسل
وجَرْعةُ الذّيقان مشروبةٌ،
وغيرها المستعذبُ السّلسل
فأتِ جميلاً، لم يقعْ بأسُنا
بأنّه، يوماً، به يُوصل

(١) الفسل: الضعيف الحقير.
(٢) المشتار: الذي يجني العسل.
(٣) أمقرت: صارت مرة كالمقر وهو الصبر. العسَّل: الذئاب المضطربة في عدوها.

فهرس الموضوعات